

٤١٤

دكتور

عبد الفتاح عاشور

مدرس التفسير وعلوم القرآن
بجامعة الأزهر، والجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة



٣

الحج في القرآن الكريم
دراسة موضوعية لآيات الحج في القرآن الكريم

الطبعة الأولى

١٩٧٨

تطبعة الحضارة العربية - الفيحاء
ت. ٩٣٤١١٧

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٤٨ / ٧٨

تصفحة

محتويات الكتاب

تقديم ٣

الباب الأول : البيت الحرام ، بناؤه وما فيه من الهداية والبركات
وإيجاب الحج ١

الفصل الأول : أول بيت وضع للناس ٣

الفصل الثاني : ما فيه من الهداية والبركات ٦

الفصل الثالث : ما فيه من الآيات البيئات ١٠

الفصل الرابع : إيجاب الحج ١٤

الباب الثاني : إبراهيم عليه السلام - وقصة بناء البيت ١٩

الفصل الأول : هاجر وإسماعيل عند البيت ٢١

الفصل الثاني : فداء إسماعيل ٢٦

الفصل الثالث : إبراهيم يرفع القواعد من البيت وإسماعيل ٣٦

الفصل الرابع : دعاء إبراهيم لمكة وأهلها ٤٦

الباب الثالث : البيت .. دعوة التوحيد ٤٩

الفصل الأول : بيت .. أساسه التوحيد وعنوانه الطهارة ٥١

الفصل الثاني : بيت تحن القلوب إليه ٥٥

الفصل الثالث : ما فيه من المنافع ٥٨

مقدمة
أمثلة وشفا المبدء

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد
النبى المصطفى وآله الطيبين الطاهرين

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد
النبى المصطفى وآله الطيبين الطاهرين

١٩٩٩
٨٧٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

أحمد الله حمد المخلصين الصادقين ، وأصلى وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين .
وبعد :

فألقرآن بحر زاخر يموج بالمعارف الربانية ، وينمض بالأسرار الإلهية ،
غاص العلماء في أعماقه فاستخرجوا الكثير من درره وكنوزه ، وبقى هذا البحر
فياضاً بالخيرات ، عامراً بالفتوحات والبركات .

ولقد حاولت أن أغوص في أعماق هذا البحر وأن استخرج بعض درره
وكنوزه ، فوق اختياري على الآيات التي تحدثت عن فريضة جمعت الكثير من
حقائق الإسلام ومبادئه وأركانه ، وتلك هي فريضة الحج .

ولقد كتب علماءنا الأجلاء في تلك الفريضة ، كما كتبوا في غيرها مجوثاً
نافعة ، ولم يتركوا مسألة تخطر على بال إلا وعرضوها على كتاب الله وسنة
رسوله ، وفضلوا فيها القول تفصيلاً ، فزاهم الله على الإسلام والمسلمين خير
الجزاه .. تقرأ في ذلك مثلاً : للشيخ محمد ناصر الألباني : حجة النبي ﷺ ،
ولابن حزم : حجة الوداع ، وللشيخ محمد زكريا الكاندهلوي : حجة الوداع
وعمرات النبي ﷺ ، وللشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جاسر : مفيد الأنام
وتور الظلام في تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام « في جزءين » وللشيخ
سيد سابق : الحج ومناسكه هذا عدا الأبواب الثابتة في دراسات الفقهاء وكتب
الفقه الإسلامي ، يضاف إلى ذلك ما تخرجه المجالات الإسلامية في أنحاء الوطن
الإسلامي بمناسبة موسم الحج من ملاحق ومقالات وبحوث تشرح ما في هذه
الفريضة من أحكام وآداب ، مما هو جدير بالثناء والإعجاب ..

(د)

صفحة	
٦٨	الفصل الرابع : تعظيم حرمة الله وشعائره والنهي عن الاشرار وقول الزور
٧٩	الفصل الخامس : الذبح باسم الله
٨٧	الفصل السادس : البدن
٩٣	الباب الرابع : أحكام ومعايير
٩٥	الفصل الأول : السعي بين الصفا والمروة
١٠٢	الفصل الثاني : أضواء على آيات من سورة المائدة
١٤٠	الفصل الثالث : من أحكام الحج ومعاييره في سورة البقرة

(و)

فاذا بقى لنا بعد هؤلاء وأولئك من القول ??

نعم ، بقى لنا الشيء الكثير ، بقى لنا القرآن الذى لا تمتقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، لذا نظرت فى الايات التى تحدثت عن البيت الذى منحج إليه ، والآيات التى تحدثت عن ابراهيم الذى رفع قواعد هذا البيت ، والآيات التى حدثتنا عن الحج وما فيه من الأحكام فوجدتها مليئة بالأسرار ، مشرقة الأنوار ، فقلت لم لا أحاول أن أستلهم بعض هذه الأسرار وأن أقتبس بعض هذه الأنوار .

وكان شهودى موسم الحج مرتين أعظم فرصة لاستلهم هذه الأسرار ، واجتلاء تلك الأنوار فأمسكت القلم واستعنت بالله . وكتبت ما فتح الله به فى تلك الآيات مسترشداً فى ذلك بما كتبه علماءنا الأجلاء فى التفسير والحديث والتفه واللغة وغير ذلك ، لكن مع ملاحظة أنى عمدت إلى دراسة الآيات من حيث هى هداية وإرشاد ، ومن حيث ما توجى به من توجيهات وأحكام لم التزم فى ذلك تقسيمات الفقهاء وتفريعاتهم للحج وما فيه من واجبات وأركان وسنن وإنما أعرض لذلك من خلال الآيات معترفاً بأننى قد استفدت كثيراً من بحوثهم وعلمهم ومقرراً أن هؤلاء الفقهاء قصب السبق والإفادة . .

وقد بقى ما كتبت مسطوراً يحتاج إلى تنسيق وترتيب إلى أن أذن الله لى بأن أسعد بالجوار الطيب المبارك حيث أعمل أستاذاً مساعداً للتفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . . فكان للمدينة وذكرايتها والمسجد النبوى وإيماؤه والجوار العظيم لأسعد خلق الله عهداً يتلوه الأثر المحمود فى إضافة الجديد من الأفكار لما كتبت أولاً .

والآيات التى ندرسها مقسمة إلى أربعة أبواب :

الأول : فى بناء البيت الحرام وما فيه من الهداياه والبركات وفيه أربعة فصول .

(ز)

الثانى : ابراهيم عليه السلام — وقصة بناء البيت ، وفيه أربعة فصول . .

الثالث : البيت ودعوة التوحيد ، وفيه ستة فصول .

الرابع : أحكام ومعايير ، وفيه ثلاثة فصول .

أسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وأن يشرح صدورنا وينير قلوبنا وعقولنا وبصائرنا بنور هذا القرآن العظيم . . .

عبد الفناح عاشور

المسجد النبوى الشريف

الجمعة ٣ ربيع الأول ١٣٩٨ هـ

١٠ فبراير ١٩٧٨ م

بأنها تبنى في مكة المكرمة، والبناء في غيرها من بلاد العرب والمسلمين غير صحيح.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

والبناء في مكة المكرمة هو الذي يجب عليه من الحج.

الباب الأول

البيت الحرام : بناؤه . وما فيه من الهداية والبركات

وإيجاب الحج إليه

الفصل الأول : أول بيت وضع للناس .

الفصل الثاني : ما فيه من الهداية والبركات .

الفصل الثالث : ما فيه من الآيات البيئات .

الفصل الرابع : إيجاب الحج إليه .

الفصل الأول

أول بيت وضع للناس

قال تعالى : إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة ..

هذه شهادة من قبل الحق سبحانه ، فهو الذي خلق الخلق ويعلم ماذا صنع لهم ، وكل قول يناقض قول الله محض خيال وهم ليس لصاحبه عليه من دليل .

وقد ادعت اليهود أن أول بيت وضع للناس هو بيت المقدس ، وأنه قبلة الأنبياء جميعاً ، وأن مهدياً — عليه السلام — حين يترك التوجه إلى بيت المقدس يكون قد خالف الأنبياء قبله . واليهود على عادتهم من الجدل والمجادل في الحق لم يكتفوا بما ساق الله من آيات في سورة البقرة (١) إنما استمرت محاولاتهم بغية تضليل الجماعة المؤمنة فزل الوحي يرد عليهم قولهم ويثبت أن أول بيت وضع للناس في الأرض هو الكعبة المشرفة — زادها الله تشريفاً وتعظيماً .

والأحاديث الصحيحة تذكر ذلك . فقد روي البخاري ومسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة .

وهذا على أن الذي بناه هم الملائكة ، فهم قد بنوا بيت الله الحرام بمكة ، وبيت المقدس بفلسطين بعده ، وقيل الذي بناه آدم ، وقيل إبراهيم عليه السلام

(١) وذلك قوله تعالى : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها .. وما بعدها من الآيات .

ويمكن أن يقال : إن الملائكة أول من بناه ثم جسده آدم ، ثم رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .

والناس الذين وضع لهم البيت أولاً : هم آدم وحواء . . وهل كانت على الأرض غيرها ؟ ثم لأبنائهما من بعدها . . وإذن فبيت الله الحرام هو بيت الإنسانية من لدن آدم إلى قيام الساعة ، وعلى الإنسانية أن تؤوب خالقها ورازقها لتستحق دخول هذا البيت وإلا طردت منه وحرمت من شرف المثل بين يدي ربها في هذا المكان الظاهر .

وقد جعل الله مكة مكاناً لهذا البيت وسماها القرآن « بكة » وفي ذلك يقول العلماء : إن بكة من أسماء مكة على المشهور ، قيل سميت بذلك لأنها بك أعناق الظلمة والجباية بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها ، وقيل سميت (بكة) لإزدحام الناس في الطواف ، يقال : بك القوم بمعنى ازدحموا ، وعن عبدالله بن الزبير قال : سميت بكة لأن الناس يحيثون إليها من كل جانب حجاجاً .

وأما تسميتها (مكة) فلأنها تمك من ظلم فيها أى تهلكه ، مأخوذ من مككت العظم إذا أخرجت ما فيه ومك الفصيل ضرع أمه وامتك إذا امتصه .

من هذا ندرك لم اختار الله مكة لتكون مستقراً لبيته وسماها (بكة) وهذا ما يشير إلى حفظ الله لبيته وحمايته له ، وما صنع الله في أصحاب القيل خير دليل على ذلك ولنقرأ في هذا قول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب القيل » ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

وإذا أردنا زيادة بيان لما أودع الله بيته الكريم من التعظيم ، فيما معا نتدبر قول الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة » . .

إنه سبحانه — وهو يرد على اليهود إدعاءاتهم الباطلة فيما أحل وحرّم من الأطعمة — يختم ذلك بقوله : (قل صدق الله) ثم يأمرهم باتباع إبراهيم عليه السلام هذا الذي أخلص لله وجهه وما عرف الشرك أبداً فيقول : فاتبعوا مائة

إبراهيم حينئذ وما كان من المشركين ، ويرد على هجومهم على المسلمين ورسول الإنسانية محمد ﷺ في شأن تحويل القبلة بأن البيت الذي توجه إليه رسول الله والمسلمون هو أول بيت للبشرية في الأرض .

وحيث يستعمل القرآن كلمة (بيت) إنما يشير إلى ما يقتضيه البيت من الإيواء والراحة والسكينة ، وحيث يأتي به هكذا : (بيت) إنما يبين ماله من عظيم المنزلة ورفعة الشأن : وفي ذكر كلمة (أول) ما يضيق على هذا البيت مهابة وتعظيماً ، وفي اختيار كلمة : (وضع) دون : بنى ، أو (أقيم) ، أو شيد ما يشير إلى أن هذا البيت له مكانة خاصة وأنه في بنائه كان على غير المعهود ، وما يستأنس به في هذا المقام ما أخرجه ابن جرير الطبري وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال : خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة . الخ الحديث .

والقرآن حين يذكر كلمة (للناس) مباشرة بعد كلمة (وضع) إنما يعمد إلى الغرض المقصود من إيجاد هذا البيت بتلك الطريقة الربانية تكريماً للإنسان وإعلاء لقدره وربطاً له بخالقه .

ولننظر إلى قول الله تعالى : (وضع للناس) لتعلم أن الإنسان هذا الذي بنى الله له بيتاً لا يجوز له أبداً أن يعادى الله وأن يرفض تعاليمه وأن يحارب وحيه وإلا فقد خسر خسراً مبيئاً . .

ولنتقف عند قوله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) لنرى كيف أكد هذا المعنى كل التأكيد ، وذلك ما تلمحه من بداية الآية (بان) ومن اللام في قوله للذي ببكة ، ومن إسمية الجملة الدالة على الثبوت والدوام . وذلك ما يبين لنا عظمة هذا البيت وعلو شأنه ورفيع منزلته عند الله .

ولاتحس بالراحة ، ولا تذوق السعادة ، لسكن أهل الإيمان المتوجهين لهذا البيت تحوطهم البركات ، وقد تضيق ذات أيديهم يوماً ما ، وقد ينتصر عليهم عدوهم في معركة أو معارك ، ولكنهم كما عادوا إلى بيت الله والتمسوا فيه البركات ، والتصقوا بدينهم وكتابتهم وجعلوا ولاءهم لخالقهم ، واعتزوا بشريعتهم وما حمّله من معالم الخير للبشر حطت بديارهم البركات وسادوا في العالمين تحقيقاً لوعده الله القائل :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً)^(١) .

وكما قال سبحانه: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون)^(٢)

فبیت الله — وضعه الله حين وضعه — محفوفاً بالبركات ، عامراً بالخيرات .. ووضعه . هدى للعالمين . . ولتتمهل عند قوله تعالى : وهدى للعالمين ، فان الهداية . هي الدلالة الموصلة إلى طريق الحق . . والشياطين : شياطين الإنس والجن تقف دائماً للإنسانية المرصدة لترجحها عن طريق الحق ، وبيت الله هدى . أي هداية عظيمة مطلقة لا تدانيتها هداية ، ومعنى ذلك أنه مصدر إشعاع رباني للجزيرة العربية ولا لعدة بلاد حولها ، ولكن كما قال الله : (وهدى للعالمين) فمن حق العالمين أن يروا نور الله لتنبصر الإنسانية طريقها وتكشف الشياطين في أنحاء الأرض ، والشياطين دائماً تهرب أمام جحافل النور .

ولي معك أيها المسلم كلمة عتاب : بيت الله الذي تتشرف بالطواف حوله ، وتسكب العبرات عند ملزمه ، وتلصق الصدر والحد بجدرانه ، وتقف أمامه متجنباً لربك في خضوع وخشوع .

(١) سورة النور ٢٤ / ٥٥

(٢) سورة الأعراف ٧ / ٩٦

الفصل الثاني ما فيه من الهداية والبركات

قال تعالى : مباركا وهدى للعالمين ..

إذا كنا قد عرفنا كيف عظم الله بيته . وكيف كرم الإنسان فلم يتركه ضائعاً تماماً ، إنما وضع له بيتاً عظيماً فكان هذا أول بيت وضع للناس ، فمن حق هذا البيت علينا — ونحن نتحدث عن الحج في القرآن الكريم . أن نواصل الحديث عنه مهتدين بنور الله الذي له ما في السموات وما في الأرض . . فإذا نرى ؟؟ نرى أن الله يذكر أمراً ملازمياً لا ينفك عن هذا البيت فيقول : مباركا وهدى للعالمين .. والبركة كثيرة الخير وشموه ، والمبارك هو الذي وضعت فيه البركة ، وغمرته النجاة ، وأحاطت به الخيرات ، وإذا كان هذا هو شأن بيت الله فهذا أيضاً شأن كتاب الله قال تعالى : كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . وليتذكر أولو الألباب . . (١) وهذا أيضاً شأن الليلة التي نزل فيها كتاب الله . قال تعالى : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة . .)^(٢)

فما معنى هذه البركة ؟ هل هي كلمة هائلة لا مدلول لها ؟ هل تعني العجز والضعف كما حرفها المنحرفون عن هداية الله ؟ أبدأ ليس هذا هو معناها وليس هذا معانيه ، إنما البركة هي النماء والزيادة والخير العميم ، إنها مطلب عال وغال لأنها هي الحياة في وجهها المشرق المضي ، والحياة إذا خلت من البركة أصبحت سجناً رهيباً لا يطاق ، هذه دول الأرض في الشرق والغرب فتحت لها كنوز الأرض ووصلت إلى الأقطار ، ولكن أين البركة في ذلك كله ؟ إنها محطمة القواد ، ضالة الطريق ، مكدودة ، مكروية ، لا همة ، لا تشع بالأمان ،

(١) سورة ص ٣٨ / ٢٩

(٢) سورة المدخان ٢٤ / ٣

أما تذكرت إخوة لك في الإنسانية لم يعرفوا أين الحق ، ولم يسمعوا عن دين الله ؟ أما علمت - وأنت تقرأ في صفة هذا البيت . مباركا وهدى للعالمين - أنك مكلف بالجهاد لتصبح هذه الهداية الربانية المنتهية في وحي الله وستة رسوله عليه السلام حياة لبني الإنسان ؟ قل لي بربك . لماذا توقف جهادك ولماذا ألقيت السلاح من يدك ؟ ولماذا ضننت بالدم والمال والولد على ربك . كيف تعرف شعوب الدنيا معاني كتاب الله وأنت تغط في سبات عميق . وإذا استيقظت استيقظت على شهوات النفس وجمع المال والإستمتاع بالملذات . الأمر إذن يحتاج إلى البذل والعطاء . . وإذا حفت بك البركات وعمركت الفسحات فتجرد من ضعفك وعجزك واستعن بالله ولا تعجز . وشد أزر إخوتك المؤمنين وهيا معاً تتكاتف من أجل تحقيق ما قال الله : (وهدى للعالمين) .

وقد مرت القرون . وفيها ضحى المجاهدون حتى أوصلوا نور الهداية الإلهية لكل مكان عرفوه وما نخلوا بشيء على ربهم . (ومن يدخل فاعلم ما يدخل عن نفسه . والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ..)^(١)

أما أنت فقد أصابك الخمول واجتاحك الشياطين . واستولت عليك المطامع . وألقيت السلاح من يدك . فتقلص سلطانك واقتطعت منك بلادك وضاعت منك أرضك التي أعلى فيها أبؤك نور الله . واستطاع المجرمون في الأندلس وفلسطين وبخارى وغيرها أن يستأصلوا الإسلام من جذوره . واستطاعوا في بلاد المسلمين أن يزيلوا شريعة الله لتحل محلها شريعة الهوى وسلطان القهر وجبروت الفوضى والهمجية . وحسب هؤلاء المجرمون أنهم سيفلتون من يد الإله القادر . (ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ..)^(٢)

لكن يبقى أنت أيها المسلم .. أنت أيها الإنسان الذي اهتدي بهدي الله . عليك أن تجعل هذا الهدى . وهذا الإسلام الذي أتى به الأنبياء . وجاء له مؤكداً ومتمماً خاتم الأنبياء محمد ﷺ سبيلاً للبشر . فهذا حق الله عليك . وهذا واجب الأخوة في الإنسانية . . وإلا فالحساب عسير والخسارة فادحة . . وخسارة في الدنيا بالهوان والمذلة والضياع والدمار . وخسارة في الآخرة حين تقف أمام الله بتفريطك وبخلك وتحاذلك - لاجعلنا الله كذلك وجعلنا من الراجحين للفضل الفائزين بالرضا (ولو شاء الله لا تنصر منهم . ولكن ليلو بعضهم ببعض . والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسوا لهم وأضل أعمالهم ..)^(١)

قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين . . يقول ابن كثير : « فهذا يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة .

لما ارتفع الجدار أتاه اسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، وكما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها ، وهكذا حتى أتم جدار الكعبة ، وكانت آثار قدمية ظاهرة فيه ، ولم يزل هكذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها ، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة باللامية :

وهو طيء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً فقد روى عن أنس قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأحصى قدميه غير أنه أذبه مسح الناس بأيديهم^(١) .

وكان هذا الحجر ملصقاً بجدار الكعبة فأخره عنها عمر حتى لا يشوش من يطوف بالبيت على المصلين عند المقام ، ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . . وإذا كانت هذه علاقة ظاهرة على أن هذا البيت له منزلة عالية عند من وضعه ليكون ملتقى البشرية في أجيالها المتعاقبة ، فإن العلاقة الأخرى هي ما نقرؤه في قوله سبحانه : « ومن دخله كان آمناً . . والأمان أعظم مطالب الإنسان وأغلى أمانيه ، وهذا ما جعله الله من خصائص بيته حتى بعد أن انحرف العرب عن دين إبراهيم بقيت هذه الآية الظاهرة دليلاً على قدسية هذا البيت وشرف واضعه ، فعن الحسن البصري وغيره : كان الرجل يقتل فيضيع في عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهيج حتى يخرج . وهذا ما يذكر به القرآن قريباً فيقول : أو لم يروا أننا جعلنا حرمنا آمناً

(١) ابن كثير ج١ ص ١٧٠ دار أحياء التراث العربي . بيروت ١٣٨٨ هـ .

الفصل الثالث

﴿ ما فيه من الهداية والبركات ﴾

قال تعالى : « فيه آيات بينات : مقام إبراهيم . . ومن دخله كان آمناً » . .

إذا كان الله قد بين لنا أولاً أن هذا البيت هو أول بيت وضع للناس ، وذكر لنا ثانياً أن هذا البيت مبارك وهدى للعالمين ، فهو الآن يظهر لنا جانباً آخر من جوانب تعظيم هذا البيت وتكريمه وتشريفه حيث يقول عز وجل :
فيه آيات بينات : مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً .

وتعابير القرآن ذات دلالات وإيماءات فانظر معي إلى قوله تعالى :
« فيه آيات » فمعناها أن هذه الآيات تملأ أرجاءه ولا يخلو منها موضع قدم ،
فحينما نظرت وأنا سرت تستطيع أن تأمس بنفسك هذه الدلائل . ويؤكد هذا
المعنى كلمة « آيات » فليست بآية واحدة إنما هي آيات ، واختيار كلمة « آيات »
دون علامات بين رفة شأنها ، وأنها — في كل جزء منها — ما يدعو إلى
الإعجاب والصدق والتسليم ، وفي وصفها بأنها « بينات » زيادة تأكيد وداعية
إيمان .

ومن هذه الآيات البينات : مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً .

ولما كان الكفار يدركون هذين الأمرين بحواسهم : فهم يرون مقام إبراهيم أمامهم ، ويشعرون بالأمان في هذا البيت ، لذا لفت أنظارهم إلى ما يشاهدون حتى يلتفتون إلى نعمه فيشكروها ولا يكفروها .

ومقام إبراهيم : هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم في بناء البيت ،
بروى الإمام البخاري بسنده عن عمرو بن دينار قال : سمعت ابن عمر يقول :

ويتخطف الناس من حولهم؟ أقبال باطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (١).

وما يمتن عليهم به فيقول: لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف،
فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. (٢)

وها رأيت أعظم من الأمان الذي جعله الله في بيته فشمّل مع الإنسان
الطير والنبات والحيوان؟

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي شريح العدوي قال: قام النبي ﷺ
الغد من يوم فتح مكة فقال: إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل
لامرئيه يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة،
فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم
يأذن لكم وإنما أذن لي ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها أمس.

وعن ابن عباس فيما رواه الشيخان قال: قال رسول الله ﷺ: إن هذا
البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام يحرمه الله إلى يوم
القيامة لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا
يختلي خلاها..

ولهذا روى عن ابن عمر أنه قال: لو وجدت قاتل أبي في الحرم ما هجته،
وقال ابن عباس: لو وجدت قاتل أبي في الحرم لم أعرض له.

إن هذا الأمان الذي جعله الله للبلد الذي فيه البيت الحرام من يوم أن
خلق السموات والأرض لجدِّه بالنظر والتأمل فإنه آية باهرة دالة على ما في
هذا البيت من عظيم الأسرار وباهر الأفضال.

وتعبير القرآن عن حقيقة هذا الأمان يسكب مزيداً من الرضا والسكينة

(١) سورة العنكبوت ٢٩/٦٧.

(٢) سورة قريش ١٠٦.

في قلوب المؤمنين، فلم يقل القرآن: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن
داخلة ولكنه قال: ومن دخله كان آمناً، وفي هذا ما يفيد دوام هذا الأمان،
ولم لا يكون أماناً دائماً وهو حكم صادر من قبل من يملك هذا الأمان وهو
الله سبحانه، وفي هذا التعبير أيضاً بيان لقيمة ما أعطاه الله من هذا الأمان لكل
من دخل بيته، حتى العصاة فإنهم بدخولهم آفوا إلى ركن شديد واعتصموا
ببيت الله وهم لا يبر تائبون لربهم راجعون إليه.

الفصل الرابع

إيجاب الحج

قال تعالى: « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

لقد رأينا ما أودع الله بيته من الشرف والمنزلة العالية ، وما اختصه به من التكريم مما يجعل الثول أمام صاحب هذا البيت في بيته كرامة ومنزلة . إلهذا ما أوجب الله على خلقه حين قال : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

وتلك هي معاملة الخالق الرحيم مع خلقه : يفرض عليهم ما يفرض بعد أن يبين لهم قيمة ما أوجبه عليهم وأثره النافع في حياتهم ، وإن لم يبين لهم ذلك في موقف من المواقف فانما ليعلمهم كيف يعبدونه ويدنسون له بالطاعة والولاء ، فما أكرم وما أعظم وما أرحم إلهنا بنا .

وقد أوجب الله بهذه العبارة من الآية الكريمة الحج على الناس ، فأصبح الحج ركناً من أركان الإسلام ودعامة من دعائمه ، يقول رسول الله ﷺ : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » .

ومن رحمة الله أن أوجبه مرة واحدة في العمر : فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله الحج في كل عام ؟ قال : لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لم تقوموا بها . ولو لم تقوموا بها لعذبتم^(١) .

(١) متفق عليه .

(٢) ابن ماجة .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج ، فقام الأقرع بن حابس فقال : يا رسول الله أفى كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع^(١) .

والمولى سبحانه حين أوجبه قال : « والله على الناس حج البيت » فبدأ العبارة باللام الدالة على الإيجاب والإلزام ، وزاد الإيجاب والإلزام تأكيداً قوله « على الناس » كما إذا قلت : لنفان على دين ، وهذا الوجوب على الناس الذين وضع لهم هذا البيت فهم كل البشر فعبادهم والضحاك وغيرها أنه لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ أهل الملل من مشركي العرب والنصارى واليهود والمجوس والصابئين فقال : « إن الله فرض عليكم الحج فحجوا البيت » فلم يقبله إلا المسلمون وكفرت به خمس ملل ، قالوا : لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نستقبله فأُنزل الله : « ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

وكان هذه دعوة للعالم كله للدخول في دين الله والاستسلام للشرعية الإسلام وتبنيها . ظلال الحرم الآمن والدخول في رحاب الله المطمئنة المهادنة الرحيمة ، لأن الحج وهو أحد أركان الإسلام لا يقبل ممن لم ينطق بالشهادتين فإذا كان الحج واجباً على كل الناس وعلى كل البشر مسلمهم وكافرهم فهو أحد الأسس الإسلامية . وجزء من كل يجب الإيمان بالجزء . ويجب الإيمان بالكل ، يجب على الإنسانية أن تعود لدين الله وأن تستجيب لنداء رسول الله ﷺ . يكون هذا الإسلام طريقها وحياتها ومنهجها .

وبعد هذا الإيجاب العام للحج على الناس جميعاً يقول : « من استطاع إليه سبيلاً » .

فقد فرض الحج على الناس جميعاً لما فيه من الخير العميم والنفع العظيم

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم .

(٢) انظر فتح القدير للشوكاني ج١ ط العنانية ٥١٣٨٣ ١٩٦٤ ط الحلبي بمصر

والعاقل من يبادر إلى اكتساب هذه الرحمات ، وفي الحديث : تعجلوا الحج — يعني التريضة — فان أحدكم لا يدري ما يعرض له (١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : من أراد الحج فليتعجل (٢) ..

ولكن ماذا يفعل من لم يقدر على الحج ؟ هذا لامح عليه إلى أن يجد .. لكن ما حدود هذه الاستطاعة ؟ لعل ماتلقيه كلمة « سبيلا » وما في تقديم كلمة « إليه » عليها ، وما بين الله في بيته من ألوان العظمة والخير والبركات ما يجعل حدود هذه الاستطاعة أصراً تقدره النفس المؤمنة التي تعشق جوار ربها وتحن إلى بيته ، وتتوجه بكل مشاعرها إلى هذه القبلة في اليوم خمس مرات في الصلوات المفروضة وغيرها من الصلوات السنوية .. فهي إن وجدت مخرجا من ضيقها ، وبصيصا يوصلها إلى بيت ربها لا تتوانى ولا تتأخر شأن المشوق الغائب ينتظر بادرة أمل ليلتقي بأحبابه ، يقطع المفاوز والقفار ، والبيجار والأنهار ، والليل والنهار ، لا يبالي تعباً ولا مشقة ولا يحس ألماً أو ضيقاً إنما يريد أن يصل إلى الحبيب ، يريد أن يمتع القلب والنفس ، يبتغي أن يرى منازل أحبابه وخلانه وأن يعانقهم وأن يخاطبهم ، ويروي كل ذرة في كيانه بماء اللقاء وروعة الحضرة وأنس الاجتماع .

وهكذا أهل الإيمان في نظرهم لربهم وخالقهم . وهل بعد حب الله وحب رسوله حب ؟ إنها أعلى على المؤمنين من أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ولم لا ؟ وقد قال رسول الله ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ووالده والناس أجمعين (٣) ..

إنهم يخنون إلى لقيا ربهم في بيته يمتعون البصر والقواد ، ويروون قلوبا عطشي إلى الكعبة والصفا والمروة وعرفة ومنى والمشعر الحرام .. إنهم يحجون

(١) رواها الإمام أحمد

(٢) متفق عليه .

بقلوبهم وأجسادهم ، بل لقد حجت منهم القلوب قبل أن تحج منهم الأجساد ، لكن ناهي ذي فرصة متاحة وسبيل ميسور ، فمن يستطيع أن يتوانى أو يتكاسل ، وهي فرصة العمر ، وقد لا تعود .

بقي أن نعرف حدود هذه الاستطاعة كما أوضحته السنة المطهرة ، فقد سئل رسول الله ﷺ : ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة (١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : السبيل : أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به .

وعن النخعي قال : إن المحرم للمرأة من السبيل الذي قال الله .

وقد ثبت عنه ﷺ النبي للمرأة أن تسافر بغير ذي محرم .

وقد ذكر الفقهاء شروطا لوجوب الحج هي : الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والاستطاعة ، ووجود محرم للمرأة أو نسوة ثقات معها .

فاذا اعتزمت أداء هذه التريضة فبادر بالتوبة الخالصة ، ورد الحقوق لأصحابها ، واقض ما عليك من ديون ، وتجرد من سيء الأخلاق وارتد فضائلها ، واترك لأسرتك ما يكفهم إلى أن تعود سالما واذن الله . واستشر من تتوسم نية الصلاح ، واستخر ربك . واستعن به في كل أمرك ، واقصد وجهه الكريم ، فبق تضحيتك بالمال ، وفي ترك لأولادك ومن تحب ، وفي تجردك عند الميقات من ملابسك . وفيما تتحملة من مشاق السفر ما يعودك على التضحية والعطاء ، وما يذكرك بالله ولقائه والوقوف بين يديه — وتلك — والله — هي السعادة ، وهذه مفاتيحها أعطها الله إليك .

إن الله حين فرض على الناس حج بيته أراد بهم خيراً ، وعليهم أن يعملوا أنه لو اجتمع أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم على أتقى قلب رجل واحد ما زاد

(١) رواه الحاكم وغيره عن أبي أمامة .

(٢) — الحج —

ذلك في ملك الله شيئاً ، ولو اجتمعوا على أجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ، فهم — إذن — الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد ، ولذلك كان ختام الآية هذا الوعيد الشديد ، فقد قال عز من قائل : ومن كفر فإن الله غني عن العالمين . . . أي ومن كفر بوجوب الحج ، أو من كفر بالله أو من استغنى عن الله ، وكلها ، معان متقاربة — فقد باء بالخزي والندامة ، والله ليس في حاجة إلى إيمانه وطاعته ويكفينا في هذا المقام قول رسول الله ﷺ من مات ولم يحج حججة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر ، أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء : يهودياً أو نصرانياً (*) [

وقول عمر رضي الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى هذه الأمصار فينتظروا كل من كان له جده ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، وقوله : لو ترك الناس الحج لقاتلهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة .

(١) أخرجه سعيد بن منصور وأحمد في كتاب الإيمان وأبو يعلى والبيهقي .

الباب الثاني

ابراهيم عليه السلام - وقصة بنا البيت

الفصل الأول : هاجر وإسماعيل عند البيت .

الفصل الثاني : فداء إسماعيل .

الفصل الثالث : ابراهيم يرفع القواعد من البيت وإسماعيل .

الفصل الرابع : دعاء ابراهيم لمكة وأهلها .

الفصل الأول

« مهاجر وإسماعيل عند البيت »

قال تعالى : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم — ربنا — ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وأزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » . [سورة إبراهيم ١٤ / ٣٧، ٣٨]

لقد رأينا في آيتين من سورة آل عمران ما أودع الله بيته من الهداية والبركات وما حباه به من الفضل والتكريم وكيف أن بيتاً هذه صفته جدير بأن يحج الناس إليه من كل فج عميق ..

وموعداً الآن مع إبراهيم الخليل الذي رفع القواعد من البيت وإسماعيل؛ بعد أن أزال طوفان نوح — عليه السلام . آثار بيت الله ولم تبق إلا قواعده فكيف بنى إبراهيم وإسماعيل هذا البيت ؟

هنا نبدأ قصة إسماعيل من بدايتها كما عبرت عنها آيات من سورة إبراهيم إذا يقول عز وجل على لسان إبراهيم : ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم — إلى أن قال : وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء .

يروى الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس قال : جاء إبراهيم مهاجرًا وبانها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت : عند درحة فوق زمزم في أعلى المسجد ؛ وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه

أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: "الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت فأطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثانية حيث لا يروونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا هؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ — يشكرون ..

عاد إبراهيم صابراً محتسباً، وبقيت هاجر في هذا المكان الموحش فهل ينساها ربه؟؟

لقد تلتفت هنا وهناك فما وجدت إلا رحمة الله وسكينته تحيطان بها، وما هي إلا أوقات قصيرة حتى نفذ الزاد والماء وجف لبنها وكاد وليدها أن يموت جوعاً فماذا فعلت؟؟

يقول ابن عباس: وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش إبنها وجعلت تنظر إليه يتلوى، فأطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟؟

فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت: هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً!! ففعلت ذلك سبع مرات.. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فذلك سعي الناس بينهما، فلما أثمرت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها، ثم سمعت أيضاً فقالت: قد أسمع إن كان عندك غوث، ناذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه وتقول يدها هكذا، وجعلت تعرف من الماء في سقاها وهو ينور بخير ما تعرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تراك، أو قل: لو لم تعرف من زمزم لكنت زمزم عيناً عينا، قال: فثمرت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن هذا بيت الله يدينه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله..

هذا هو إسماعيل وتلك أمه هاجر ما تركهما ربهما لأن هاجر فوضت الأمر لله فكان أن حماها الله وإبناها من الهلاك ونجر لها عينا من الماء، وليس هذا بحسب إنما ساق الله لها من يؤنسها فقد مرمت بهم جماعة من قبيلة جرهم فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائر يحوم حول الماء، فتعجبوا وقالوا: لهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا واحداً منهم فعاد فأخبرهم بوجود الماء فأقبلوا، فقالوا لأم إسماعيل: أتأذنين لنا أن نزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لاحق لكم في الماء، قالوا: نعم، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم..

أرأيت كيف يحمى الله عبادة الصالحين؟ وكيف استجاب الله دعاء إبراهيم هذا الدعاء المعبر عن العبودية لله الواحد الأحد، إنه ينادى خالقه بقوله: ربنا ولا يأتي بيا النداء لما يشعر به من ألم الفراق والبعد عن وليده الذي رزق به على الكبر، فهو متلهف مندفع في دعائه، وكما قال الله فيه: (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) ١١.

وهذا الانتباه إلى الله بهذا الإحساس المرهف لا يترك لإبراهيم فرصة أن يقول: (يا ربنا) إنما هكذا (ربنا) وفي وصف لإلهه بالربوبية ما يبني عن شعور إبراهيم بأن أمر الله له أن يترك هاجر وولدها في هذا المكان لونه من الترية الإلهية وأن الله الذي عمت أفضاله الكون وسير هذا الوجود كله لا يمكن أن يغفل عن هؤلاء..

ويزيد هذه الضراعة تأكيداً قوله عليه السلام: إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم... فهذا واد لا أنيس فيه ولا جليس، وتبدو خطورته في أنه لا زرع فيه ولا يصلح لذلك فكيف يقتاتون؟ ولكنه أمرك يا الله، أسكنتهما عند بيتك المحرم، فلم يكن يعلم لإبراهيم مكان البيت على وجه التحديد.

وتبدو عظمة جهاد إبراهيم حين يحدد الهدف من وجود هذا الابن في ذلك

المكان فيقول : ليقوموا الصلاة ، ولكنه — كعادته من المبالغة في الضراعة والخشوع يقول : ربنا ليقوموا الصلاة .. أى أودعتم رعاياك الطاهر وخدمه ليكونوا أئمة هدى ومصباح تنير للإنسانية درب الحياة الطويل .

وإقامة الصلاة هدف يسعى لتحقيقه الأنبياء والصالحون ، وليس معناها مجرد أدائها تامة الأركان والشروط فهذا جزء من معنى الإقامة ، ولكن معناها يفهم من قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرجهم الله)^(١) .

ومن قوله سبحانه : (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)^(٢) .

فهى تحتاج إلى تعاون الأمة وتناصرها ، وتحتاج إلى الجهاد بكل ألوان الجهاد لتصبح طريق حياة ومنهج سلوك ، ولا تصح أن الظالمين يتكبرون أهل الإيمان بقيامهم الصلاة ، إنهم قد يتكبرونهم يصلون ، ولكن أن تكون هذه الصلاة عنوان الأئمة فتخرج الناس من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد وأن تحوّلهم من شهواتهم وأطاعتهم وضعفهم ، وأن تكون منهم حفاة متراضاً لا يرضى بالضم ولا يقبل الهوان ، فهذا ما لا يسلم به المجرمون إلا ببذل الغالى والنفيس والتضحية من أهل الإيمان بما ملكت أيديهم ، وهذا ما نعل إبراهيم عليه السلام ، ويتزدد له أن يعزهم فى أداء مهمتهم بأن يجمع الناس حول خزيته سبى يشعروا بالألس وأن يرزقهم من الثمرات فقال : فاجعل أئمة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .. واستجاب الله دعاه إبراهيم فأرسل جرحهم لتقيم معهم وجر لهم زمزم ورزقهم من الثمرات فكان منهم الشكر الدائم لله ولي النعمة وصاحب العطاء .. وسارت دعوة إبراهيم

(١) سورة التوبة ٧١/٩

(٢) سورة الحج ٤١/٢٢

عبر القرون واختلطت بالقلوب والمشاعر ، فما من نفس مؤمنة إلا وتهنو وتحن وتتشوق لبيت الله وساكنتيه ، وقد أفاض الله على أهل هذا البيت ألواناً من الخيرات والبركات والثمرات من عهد إبراهيم إلى وقتنا الحاضر ، وما ذلك إلا استجابة لنداء هذا النبي الكريم .

ولنتظر إلى توكّل إبراهيم على ربه ولنسمعه ينادى ربه فيقول : ربنا إنك تعلم ما تخفى وما تعان . (أى ما تخفيه يتساوى عندك بما تعلنه فأنت تعلمه كله ولا يغيب عنك ، أو تعلم ما تخفيه من حبنا لولدنا وما تعلنه من التفويض إليك وتعلم ما تخفيه من الإخلاص المستقر فى قلوبنا وما تعلنه من هذا الإخلاص ، وتعلم كل ما تخفيه وكل ما بديه : (وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء) فسبحان الأول والآخِر والظاهر والباطن ومن هو بكل شيء عليم .

فمن يستطيع أن يضحي كما ضحى إبراهيم عليه السلام ؟ ومن يستطيع أن يبذل كما بذل . ؟ إن هذا هو الطريق لمن أراد لمبادئ الحق أن تسرد العالمين وأن ترتفع راياتها خفاقة فى ربوع الأرض .

إن ذلك يبدأ بقوله سبحانه : وقال إني ذاهب إلى ربي سبيدين ، رب هب لي من الصالحين فبشرناه بسلام حلیم) . فمن يهاجر إبراهيم ؟ إن قومه لم يستجيبوا له ، ولم يستمعوا لداعى العقل يرشدهم إلى الحق ، إنما رأوا في إبراهيم مصدر خطر على معتقداتهم وأوضاعهم . فكيف يتخلصون منه ؟ (قالوا : ابنوا له بناياتاً فألقوه في الحميم) ظناً منهم أن هذا هو الحميم الذى سيحرق إبراهيم ويخلصهم منه إلى الأبد ، ولكن السماء والأرض والجبال والملائكة قالت : ربنا . خليك إبراهيم يحرق ؟؟

قال : أنا أعلم به وإن دعاكم فأغيثوه ، فقال إبراهيم : اللهم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الأرض ، ليس أحد فى الأرض يعبدك غيرى . حسبي الله ونعم الوكيل . فصدر الأمر الإلهى : (قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)^(١) .

وماذا يصنع العباد الضعاف أمام قدرة القادر؟؟ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين)^(٢) .

من هؤلاء القوم الذين طمس الباطل عقولهم وقلوبهم هاجر إبراهيم إلى الشام وأعلن أمامهم : (إني ذاهب إلى ربي سبيدين) إنها هجرة إلى الله . . هجرة النفس حين تتخلص من كل العوائق والعلائق والرغائب فلا يشدها إلا ما فيه رضا ربها : لم يعد لأهله ولا لدياره التى عاش فيها ولا لأحد عليه من سلطان .

وهجرة الروح إلى ربها حتى ترتفع عن الملذات والدنايا . .

وهجرة الجسد حين يفارق ذلك كله ويقطع الصحارى ويجوب البسلا ، متعرضاً للاهوال ، مهاجر إلى الله . . وإنها هجرة (إلى ربي) . . لأنه رب

(١) سورة الأنبياء ٦٩/٢١

(٢) سورة الأنبياء ٧٠/٢١

الفصل الثانى

فداء إسماعيل

قال تعالى : (وقال إني ذاهب إلى ربي سبيدين ، رب هب لي من الصالحين فبشرناه بسلام حلیم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسأما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين إنا من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) .

[سورة الصافات ٩٩/٣٧—١١٣]

يذكر المسلمون وهم يؤدون مناسك الحج مواقف التضحية والفداء ويرون أولاداً من الرنة الإنسانية متمثلة فيمن ضحوا وتحملوا الصعاب فى سبيل إقرار كلمة الله فى الأرض وأصبح بعض ما فعلوه منسكاً من مناسك الحج يسجله القرآن بأسلوبه الأخاذ القديح ذكر هؤلاء المجاهدين نبراساً يضىء الطريق أمام دعاة الحق وأنصار الإيمان .

ولقد رأينا هذا الامتحان الذى نجح فيه إبراهيم وزوجه هاجر حين استسأما لأمر الله ، وكيف ولّى إبراهيم ظهره إليها ووقف — بعيداً — يدعو ربه أن يجعل أفتة من الناس تهوى إليهم وأن يرزقهم من الخمرات لعلهم يشكرون ، وكيف أن هاجر حين علمت أن ذلك أمر الله قالت : إني لا يضيعنا . هذه الأسرة المؤمنة على موعد مع امتحان — جديد — لا يطيقه إلا الأفاضل من أهل الإيمان ولننسى مع بداية هذه القصة : قصة ابتلاء آل إبراهيم وكيف كان ؟

العالمين .. لكن ابراهيم يضيف هذه الربوبية لنفسه شعوراً منه بأن كل حياته ملك لله ، وأن كل لحظة فيها تدبرها وتدبرها يد ربه الكريم العليم .

ولو عدنا إلى قوله : (إني ذاهب إلى ربي) لوجدناها بنىء عن وضوح الهدف أمامه وتحديد الغاية من حياته كلها بأسلوب يفيد ثبات هذه الحقيقة في سلوكه كله ودوامها ، فالغاية والمقصد والهدف المنشود الله الذي ربه .

ويؤكد هذا المعنى ثقته في فضل مولاه ، وعلمه التام بما يصنعه له خالقه في كل أمر ، وتوكله الدائم على سيده ، وذلك ما يعبر عنه قوله : (سهدين) فكأنه قال : أنا واثق من أن الله لا يضيعني ولا يتركني لأنه لي نعم المولى ونعم النصير .

هاجر ابراهيم عليه السلام من العراق إلى فلسطين ، وهو يحن إلى الأليف والجليس والمؤانس ، وصرت به تلك السنوات الطوال لم يرزق بولد ، وهاهو ذا أصبح بحاجة للولد يعينه على حمل أعباء الرسالة والدعوة إلى الله ، ولهذا توجه إلى من تعزده منه الكريم والعطاء فقال : (رب هب لي من الصالحين) ولعلك تدرك معنى مدى ما في هذا المطالب من الضراعة والأدب وحسن الاختيار ووضوح الغاية من الذرية والولد .. فهو يسأل من ربه على موائد كرمه محض الفضل بأن يهب له من الصالحين ..

والهبة : عطاء وتكرم لا تحتاج في مقابلها إلا إلى الشكر ، وهكذا شعور المؤمن : ينظر فيرى أن الله وحب له ما في هذا الكون وسخر له ما في هذا الوجود ابتداء تفضلاً منه وكرماً . قال تعالى : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (١) .

فسبحانه من إله كريم عظيم .

والغاية من الذرية تبدو في قوله : (من الصالحين) . فهو يتغنى ذرية

صالحة تعينه في أمر دينه ودنياه . وذلك أفق عال لا يتيسر إلا لمن استنارت بصائرهم بنور الله . وماذا في الذرية بعد الصلاح ؟ !

إنها لكلمة جامعة جمعت الخير من أطرافه والسعادة من جوانبها .. ولهذا الدعاء الخاشع في محراب الإله تجاوزت السماء وأنت ابراهيم البشري : (فبشرناه بغلام حليم) .

والبشري : إنما تكون بما يشرح الصدور ويملاها بهجة وسروراً ، وقد جمعت هذه البشري عدة بشارات : فهي وعد من الله بأن يكون المولود ذكراً وأن يبقى هذا الغلام إلى أن يتصف بالحلم ، وما في هذا الوصف للغلام بأنه حليم ما يشير إلى صلاحه المبكر ، وما فيه من مخايل النبل والفهم والإدراك الصحيح في هذا السن : سن الغلام ، والحلم ، الذي اتصف به راسخ متمين وصل فيه إلى أعلى درجاته . والحلم : صفة تجمع عدة صفات ، كلها من خصائص النفس العظيمة : تجمع الإيمان وقوة الإرادة ، وسير الأمور ، والتزوي عند المشكلات ، وسداد الرأي ، وعظيم الفهم ، وغير ذلك كثير ، وهذا ما بشر به ابراهيم ، وكان بهذا الفضل جديراً ، فله القدم الراسخ في الإيمان والتسليم المطلق لله ، والإجابة الكاملة لربه . وعلى قدر هذا العطاء كان الاختيار فكان اختباراً صعباً إلا على أصحاب القلوب العاصرة بالتقى المهتدية بهدایات الله .. بدأت أولى مراحل هذا الاختبار بأمر الله له أن يرحل بهاجر واسماعيل ليسكنهما عند بيت الله المحرم دون أنيس أو جليس وفي هذا نجاح ابراهيم كل النجاح وما إن شب اسماعيل وترعرع حتى كانت المرحلة الثانية تلك التي يقول فيها ربنا : (فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) ، قال : (يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني — إن شاء — الله من الصابرين) .

لقد رزق ابراهيم باسماعيل على الكبر وخاض تجربة صعبة وهو يودع وحيداً وفلذة كبده في واد بمكة ليس لهم إلا الله حافظاً ومؤنساً ، والآن هذا هو بيت ابراهيم كله يدخل تجربة ليست كسائر التجارب ، أنها ذبح

إسماعيل ، ويد من ؟ يد أبيه .. هذا الأب العجوز الرحيم ، ولو أن يد المنون اختطفت إسماعيل أو ذهب لساحة قتال فمات فيها ؟ ولو كان لابراهيم غير هذا الابن ، أو لو كان هذا الابن عاقاً شاذاً لا قيمة له لكان الأمر ، ولكن الأمر أمر الله ، والامتنال إليه شأن الصالحين الصادقين ..

ورأى ابراهيم في منامه أنه يذبح إسماعيل فقال : لعلها رؤية غير صادقة فأصبح الصباح في يوم الثامن من ذى الحجة وهو يدبر الرأى ويتروى في تنفيذ مارأى ، وفي الليلة التالية كانت الرؤيا بعينها فأصبح وقد عرف أنها الحق ، وفي الليلة الثالثة رأى كما رأى في الليلتين السابقتين فأصبح متجهاً إليه عازماً تنفيذ أمره ، فسمى اليوم الثامن يوم التروية ، والثاني يوم عرفة ، والثالث يوم النحر ، فكيف نفذ ابراهيم ما رأى في منامه ؟ لقد قال : يا بنى إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟؟

هكذا بلغه الواثق من فضل الله ، العابد لمولاه ينادى ابنه بهذا الهدوء كله ، وهذا الاطمئنان إلى قدر الله .. يا للعظمة !! إني أرى في المنام أني أذبحك ؟؟ إنها رؤيا منامية : تصدق أو تكذب ، وخاصة إذا كان فيها مثل هذا الأمر الشديد ، ولكن متى كانت رؤيا الأنبياء تحتمل الصدق والكذب وهم الذين تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، إن رؤيا الأنبياء وحى من الله .. كما قال ابن عباس وغيره مستدلين بهذه الآية .

ولقد نادى ابراهيم إسماعيل بصنعة النبوة وفيها من الرحمة والعطف والمحبة مالا يخفى .. وأكد مارآه في منامه بهذا التأكيد : إني أرى في المنام أني أذبحك ، وطلب منه المشورة والرأى ثقة منه فيما عليه ابنه من العقل والذكاء ولئلا يحرم من ثواب الإخلاص لله والتسليم له فقال : فانظر ماذا ترى ؟؟ بهذا الهدوء وتلك السكينة .. كأن ذلك من الأمور العادية في حياة الناس : يتشاورون فيها دون اتعال أو اضطراب .. فماذا قال الابن لأبيه ؟ قال : يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .. بهذا الأدب : (يا أبت) بما فيها من فهم الابن لمقام الأبوة ومالها من عظيم الإجلال والتقدير وما يتجمع فيها من عناصر الحب والرحمة بالأبناء .

وهذا الإدراك : (أفعل ما تؤمر) . فقد أدرك أن رؤيا الأنبياء وحى لا يحتاج إلى نقاش ، وأمر لا بد فيه من التسليم .

وهذا التواضع : ستجدنى — إن شاء الله — من الصابرين ، فلم يظهر بطوئة ، ولم يفخر بما قدم ، إنما طمأن والده بقوله : ستجدنى . . أى رهن الإشارة ، منفذ لما أراد الله ، ووكل ذلك لمشيشة الله التي تقدر العباد على ما يريدون وذلك ما تراه في قوله : (إن شاء الله) .

وأدخل نفسه مع الصابرين ، ولم يدع أنه الرجل الذى لا يبارى فى هذا المجال فقال : من الصابرين ، وكأ أنه يشفق على أبيه من هول هذا الموقف فأراد — بأدب النبوة الصالحة — أن يذكره بالصبر والصابرين . فكيف تم التنفيذ ؟؟

هنا يلعب الشيطان دوراً خطيراً فقد ورد في الخبر أن الشيطان قال : والله إن لم أفتن عند هذا آل ابراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً . فحاول أن يوسوس لهاجر وأن يخوفها من ذلك وقال لها : إن ابراهيم يزعم أن ربه أمره بهذا .. فقالت : فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه ، فأصرف عنها اللعين ، وحاول من قبل إسماعيل ، فرد عليه : فليفعل أبى ما أمره الله به ، سمعاً وطاعة لأمر الله ، وبذل جهداً جاهداً مع ابراهيم فقد قال له : أين تريد ؟ والله إني لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذيخ ابنك !! فعرفه ابراهيم فقال : إليك عني ياعدو الله ، فو الله لأمضين لأمر ربي ، ولم يكتب إبليس بذلك . قال ابن عباس : لما أمر ابراهيم بذيخ ابنه عرض له الشيطان عند جرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم مضى ابراهيم لأمر الله وذلك هو روى الجمار ، فإذا وفقك الله لأداء ما افترض عليك ورميت هذه الجمار فتذكر جهاد آل بيت ابراهيم ، وتعلم منهم كيف تنتصر على كل شيطان .

وأتى ابراهيم المنجر من منى ومعه إسماعيل لينفذ أمر الله والكل مستسلم

لأمر الإله ، منقاد لما أراد وقدر هذا ابراهيم قد أسلم ابنه لربه وفوض الأمر
خالقه وهذا إسماعيل قد أسلم نفسه لربه وترك الأمر لمولاه .. ولنتظر إلى
هذا التسليم المطلق ، ولنتدبر قول هذا الغلام الصالح وهو يقول لأبيه :
يا أبت شدد رباطي حتى لا أضطرب ، وإكفف عنى ثيابي حتى لا ينتضح عليهما
شيء من دمي فتراه أمي فتحزن ، وأسرع من السككين على حلقى فيكون أهون
للموت علي ، فإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني .. فأقبل أبوه عليه يقبله
وكل منهما يبكي ..

وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال لأبيه وكان عليه قيص
أيض : يا أبت ليس لي ثوب تكفنتي فيه غيره ، فأخله عنى حتى تكفنتي فيه
فعاجله ليخله فكان ماقص الله عز وجل ، والقرآن بصور هذا الموقف
الرهيب فيقول : فلما أسلما وتله للجبين ، ونادياه أن يا ابراهيم قد صدقت
الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ..

ولنتأمل تلك الصورة الرفيعة التي رسمها القرآن : فلما أسلما : هكذا
دون تحديد لما أسماه ليعطى صورة التسليم المطلق ، والعبودية الكاملة لله في
كل ما أراد . وفي (تله للجبين) أي كبه على وجهه . صورة تحدد إظهارها
هذه العبارة القصيرة الموحية بسرعة التنفيذ وكيف كان : صورة غلام ملقى على
جبينه في الأرض مقيداً بوثاق شديد ، ويا لهول هذا المنظر الذي اهترت له
السماء والأرض ، ووقف الكون كله دهشاً مهوور الأنفاس لما يرى .. هذا
النبي الكريم ، وهذا الابن الطيب الطاهر أسلما لله ، ولكن السككين لا تقطع
هذا السككين هو الآخر ماذا حدث له ؟ هل يشارك أيضاً في المحنة والإبتلاء ؟
أو أنه استجيا أن يريق هذا الدم الذكي على التراب ؟ أو أنه أشفق على هذا
الأب الذي أحنث ظهره السنون ؟ أو أن الأمر غير ذلك كله ??

نعم .. فقد سلب الإله العظيم خاصية القطع من تلك السككين ، وجعلها
— إكراماً لإسماعيل وأبيه — كليلية عاجزة عن القطع .. ولم لا ؟ والحق
تبارك وتعالى إذا علم من عبده الإخلاص وصدق النية في الجهاد حفظ عليه

نفسه وماله وولده وأعطاه ما اعتاده معه من الكرم والفضل الرباني ، فإذا
أخذ من ذلك شيئاً فأنما هو الإبتلاء — أيضاً — رفعه لدرجة المجاهدين ..
لذا نزل الأمين جبريل يخترق السبع الطباقي ينادي مبلغاً عن رب العزة : « أن
يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا » ، وبذلت ما في وسعك وحققت ما أوحى الله
إليك ونجحت في الإختبار « إنا كذلك نجزي المحسنين » .

لقد حقق ابراهيم أمر الله بهذا الصبر العجيب فكان له جزاء المحسنين ،
والقرآن حين يشير لهذا الجزاء الجليل بقوله : « كذلك » إنما يدل على رفعة
هذا الجزاء وعلو شأنه .. ولم لا يكون رفيع القدر عالي الدرجة وهو من عند
الله العظيم ، ومما يدل على سمو هذا الجزاء قوله سبحانه : « نجزي المحسنين »
فهو جزاء دائم متجدد ، كلما تقرب المحسن من ربه شبراً تقرب إليه ذراعاً ،
وكلما تقرب إليه ذراعاً تقرب منه باعاً ، وإذا أتاه يمشي أتاه — سبحانه —
هرولة ، والإحسان الذي وصل فيه ابراهيم للقمة هو أقصى درجات العبودية
لله .. وهو كما قال الرسول ﷺ : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه
فإنه يراك .

ومن هنا كأن ابراهيم جديراً بتلك الشهادة الغالية تلك التي يعبر عنها قول
الحق سبحانه : « إن هذا هو البلاء المبين » وانظر كيف أكد هذه الشهادة كل
التأكيد وعبر عن هذا الاختبار بأنه بلاء ووصفه بأنه مبين : أي ظاهر لا تخفى
صعوبته ومشقته على النفوس .. وكيف أشار إليه بهذا .. ليعين مدى قربته
من الله وقرب هذا الأمر وتناول ابراهيم له بتلك السهولة وهذا التسليم الفذ
الفريد مما يرفع درجة هذا البلاء وتزيده عمقاً واتساعاً ، وكأن الإله العظيم
أراد أن يقول لنا : إن ما فعله آل ابراهيم في يسر وإيمان وتفويض مما ذكرت
عنهم من التضحية هو الاختبار والإبتلاء الصعب الذي يعز على كثير من
الناس أن يصلوا إلى أوجهه العالی الرفيع .. ولو لم يكن لا ابراهيم إلا هذه
الشهادة من قبل الله فقط لكانت موضع فخار واعتزاز على وجه الزمن ، لكن
الرب الكريم أراد تكريماً آخر لهؤلاء الصابرين فقال : « وفديناه بذبح
عظيم » .

هل جاءكم من أحد؟ قالت نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته
وسألني كيف عيشنا فأخبرته أننا في جهد وشدة، قال فهل أوصالك بشيء؟
قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبت بابك، قال:
ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فألحقى بأهلك، وطلقها وتزوج منهم بأخرى
فلبت عنهم ما شاء الله ثم أتاهم فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت:
خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت:
نحن بخير، نحن في سعة وأنت على الله عز وجل، قال: ما طعامكم؟ قالت:
اللحم، قال: فما شربكم؟ قالت: اناء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء،
قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لدعا لهم فيه» قال فإذا
جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومره يثبت عتبة بابه، فلما جاء اسماعيل قال:
هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأنت عليه، وسألني
عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصالك بشيء؟
قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذلك
أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك، ثم لبت عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك
واسماعيل يرى نبلا له تحت دوحه (أى شجرة كبيرة) قريباً من زمزم
فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا اسماعيل
إن الله أمرني بأمر... قاله: فاصنع ما أمرك ربك... قال، وتعييني: قال:
وأعينك، قال: فإن الله أمرني بأمر أن أبنى هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة
على ما حولها، قال: فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل اسماعيل يأتي
بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام
عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك
أنت السميع العليم».

والحق تبارك وتعالى بأمر رسوله أن يذكر هذا الأمر الجليل ليحدد له
معالم الطريق وليقول لبني إسرائيل ولشركي العرب: هذا هو إبراهيم الذي
تتسبون إليه قد إختاره الله ليعيد بناء أول بيت وضع للناس وكان وحده
ليس له من معين بعد الله إلا ابنه إسماعيل وقد تحملوا النصب والمشقة في الكشافة

الفصل الثالث

«إبراهيم يرفع القواعد من البيت واسماعيل»

قال تعالى: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل. ربنا تقبل
منا إنك أنت السميع العليم، ربنا وأجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة
لك، وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم
رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت
العزیز الحكيم. [سورة البقرة ١٢٧/٢ — ١٢٩]

لقد اقتبسنا من أنوار القرآن في آيات الحج ما أثار لنا الطريف فرأينا في
المرحلة الأولى أن هذا البيت هو أول بيت وضع للإنسانية، وأن الله شرفه
وعظمه وكرمه وجعله منارة هدى للعالمين وأوجب حجه على الناس جميعاً،
وفي المرحلة الثانية: رأينا هجرة إبراهيم الخليل من قومه وأمر الله له أن
يسكن هاجر وإسماعيل بجوار هذا البيت وكيف كان تمحيص الله وإختباره
لآل إبراهيم حين أمر بذبح ولده فنجح في الإبتلاء وصبر في المحنة فأجزل
الله له العطاء.

ونحن الآن في مرحلة أخرى نرى فيها كيف بنى البيت الحرام بعد أن
انتهى رسمه وتهدم بناؤه وفي هذا يقول ربنا: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد
من البيت وإسماعيل — إلى أن قال: إنك أنت العزيز الحكيم».

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس قوله: وماتت أم إسماعيل فجاء
إبراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته، فلم يجد اسماعيل، فسأل امرأته
عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألتها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر
نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه
السلام وقولي له: يغير عتبة بابه، فلما جاء اسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال:

ومما هو وثيق الصلة بهذا المطلب قولهما : ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، فها يريدان إمتداداً لغرس الإيمان ، ونماءً لشجرة الإسلام ، وهذا شأن المخلصين دائماً ، يريدون للإنسانية أن تحيا في النور وأن تتذوق السعادة ، ولا سعادة إلا بالإسلام ، ولا حياة إلا بالإيمان : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » (١) .

لكن ماذا يصنع أهل الإخلاص والناس استعدادات تميل إلى الخير تارة أو إلى الشر أخرى ?? وها هو ذا ابراهيم بعد أن أعطاه الله الإمامة للناس قال : « ومن ذريتي » على عادته في حب الخير فقال له الولي : « لا ينال عهدى الظالمين » .

وهنا يقول هو واسماعيل : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » أى واجعل بعض ذريتنا أمة مسلمة لك .. وعلى هذه الأمة وتلك الجماعة من ذرية ابراهيم واسماعيل تقوم أعباء الدعوة إلى الله ، وتمتض البشرية كلما كتبت على نداء هذه الجماعة فتعرف طريقها الصحيح : طريق إسلام الوجه له وحده ، والتحرر من ربة العبودية للعباد ، والعبودية للشهوات والأهواء ، إلى العبودية للخالق العظيم فتشعر في رحابه بالحرية والأمان ..

وقد ضرب ابراهيم المثل الأعلى في مجال الاستسلام لله : « إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين » وانطلقت دعوته عبر الأجيال ، فلم يخل جيل من دعاة الإيمان والتوحيد والإسلام لله : « ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل وإسحاق إلهنا واحداً ونحن له مسلمون » إلى أن كانت الأمة الإسلامية وإمامها خاتم الأنبياء ، صاحبة الرسالة العظمى فأمرها الله ووجه خطابه به إلى رسوله عليه السلام باعتباره المثل والقوة فقال

(١) سورة الأنعام ١٢٢/٦

(٢) سورة البقرة ١٣٢/٢ — ١٣٣

جل شأنه : « قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قبا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (١) .

فلنكن من هذه الأمة وتلك الجماعة التي اختارها الله للقيام بأمره وتبليغ دعوته قال تعالى : (ولنكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (٢) .

ولنلس معاً هذه الصورة التي ترسمها عبارات الوحي الخالد لا ابراهيم واسماعيل يتصبب عرقها وها بينان البيت وألستها رطبة بذكر الله عطرة بدعائه يطلبان القبول ويرجوان الثبات على الإسلام ويأملان أن يبقى هذا الإسلام في ذريتهما جيلاً بعد جيل ، ويتجهان إلى الله قائلين : (وأرنا مناسكنا) أى علمنا مناسك الحج فما أن فرغ ابراهيم واسماعيل من البناء حتى بعث الله جبريل فحج بها .. لكنهما لم يقولوا : علمنا ، إنما قالوا : أرنا ، والرؤية كشفت وإيضاح ، وعلم وتعليم ، والمناسك التي طلبها الكاشف عنها جمع منسك ، والنسك في لغتنا العربية بمعنى الغسل ، يقال نسك ثوبه إذا غسلته ، فكأن المناسك تطهير للنفس مما قد ران عليها ، وتقية للقلب من مداخل الشياطين ، وهذا ما يشعر به كل من حج بيت الله وأدى مناسك الحج كما أراه الله ، ولهذا لا عجب أن يرجع الحاج من حجه طاهراً من الذنوب كيوم ولدته أمه ..

والتوبة : ختام الآيه الكريمة : (وتب علينا انك أنت التواب الرحيم) وما أعظمه من ختام ، إنه يدل على البصيرة المستنيرة بنور الله : فطلب القبول منها وأن يجعلها مسلمين وأن يجعل من ذريتها أمة مسلمة وأن يبصرها طريق أداء شعائر الحج ومناسك العبادات ، قد يقع في تلك الدعوات شيء من التقصير ، وقد يكون في تلك المظالم ما لا يصلح الي حد الكمال الذي رضي عنه الله ، قد

(١) سورة الأنعام ١٦١/٦ — ١٦٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٤/٣

ينظر الله الى العبد وهو في حالة لا يرضاها فلا يتقبل منه ، وقد يكون الاستسلام كله في كل أمر غير ميسور في كل حال فيعتري الإنسان ضعفه وعجزه فيميل هنا أو هناك . وقد يسهو الإنسان في أداء منسك من مناسك الحج فلا يصل الى الحد المطلوب ، هنا لا بد من التوبة ، والتوبة توفيق من الله قال تعالى : (ثم تاب عليهم ليتوبوا) ١١٠ . وهي تطلب من المتصنف بدوام القبول للتائبين والمتصنف بكل ألوان الرحمة : (إنك أنت التواب الرحيم) .

وانظر إلى هذا القول الذي يشع منه الأدب والإخلاص لله ، إنها لا يكتفيان بمجرد وصف الله بقبول التوبة والرحمة ، إنما يأتيان بهذه العبارة كدليل استعطاف يقدمانه شغيفاً لطلبهما : « وتب علينا » ويؤكدان هاتين الصفتين بالخطاب المباشر لله ، وبكلمة « إن » وكلمة « أنت » واختيار : التواب ، الرحيم ، ويضم هذه الكلمات يأتي من العبادة معنى الدوام والثبات ، أي أنت يا ربنا دائم التوبة على عبيدك ، ودائم الرحمة بهم ، وما عسى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ولا قصراً ، ولكنه أدب النبوة العالی ، ألم تسمع قول رسول الله ﷺ وقد قام الليل حتى تورمت قدماه فأشفت عليه أم المؤمنين عائشة وقالت : (لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً) ٢١ .

وقوله عليه السلام : (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة) ٣١ .

إن الأنبياء يرسون الطريق للإنسانية وهم هدايتها وقدونها ولكن الله عصمهم من المعصية .. وجنتهم الدال .. فصولات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وإذا كنا قد رأينا هذا الإخلاص الدافق وتلك الرفعة الإنسانية فيما بذه

(١) سورة التوبة ١١٨/٩ .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ورأينا تلك الدعوات المخلصة التي تطلب من الله القبول وترجو منه الثبات على الحق وتسأله أن يبقى الإسلام في ذريتهما ، فلا بد أن نتساءل : ومن تكون ذرية إبراهيم وإسماعيل ؟ لقد كان لا إبراهيم إسماعيل ، وكان له من بعد إسماعيل اسحاق ، ومن إسماعيل كان الجزء الأعظم من أمة العرب ، ومن اسحاق كان يعقوب ، وسائر أنبياء بني إسرائيل من يعقوب . . (١)

لكن هنا حول البيت كان إبراهيم وإسماعيل يبذلان جهداً مضنياً ليرفعا القواعد من البيت ويقولان : ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . . فن تكون هذه الأمة غير الأمة العربية ، وهذه الأمة كانت دعوتها . « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . . »

وكأنهما نظرا بمنظار الغيب فتجمع الوجود كله أما مهما وكشفت لهما الحق أسرار ما سيجرى فيه فوجدوا حماة هذا البيت وسدنته قد انحرفوا عن الهداية الإلهية والدين الخفيف وتبعوا في جاهلية عمياء : سرت فيهم منافذ النظر الصحيح فبدا الحق باطلا ، والظلام نوراً ، والجهل علماً ، والضلالة هداية .. وأبصر هذان الرسولان الكريمان تلك الأمة تسجد للأصنام وتمتعروا في أحوال الشرك وأقذار الشهوات ، والفراغ النفسي والعقلي والروحي ، فمن ينقذها من ذلك ؟ ومن يأخذ بيدها الى الطريق الصحيح ؟ وإذا كان حماة البيت وأهله قد وصل حالهم الى هذا الضياع فما بالك بأمم الأرض التي لم يصل اليها شعاع الوحي فعاشت في العمى والجهل . . من إذن ، لهذا العالم المكروب المكدود ؟ من للإنسانية إذا خبا ضوء التوحيد من حول أول بيت وضع للناس ؟ فليواصل إبراهيم وإسماعيل دعاهما وابتهاهما الخاشع لربهما :

(١) فإسرائيل كلمة مركبة من « إسر » أي عبد ، و « إيل » أي الله وبعثها : عبد الله وهذا هو يعقوب عليه السلام ، فأبناء يعقوب أو أبناء إسرائيل أو بني إسرائيل كلها بمعنى واحد .

فليسألاه بحق ربيوته وكرمه وفضله كما سألاه بذلك في كل دعاء .. ربنا
وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم
إنك أنت العزيز الحكيم»

وكم في تلك الاستغاثة والضرعة من معان وأسرار وأنوار: إنها تبدأ
بنداء خاشع ودعاء ضارع يفتح الأبواب المغلقة .. وهل يعلق باب أمام من
يقول: يارب?? وهل يرد من يطرق باب سيده ومولاه معترفاً بما له من أفضال
وما عنده من عظيم الكرم ووافر البركات والرحمات? وهذا ما فعلاه حين
قالا: ربنا .. ربنا .. ربنا .. ولكنهما في هذه النفثة الأخيرة وصلوا إلى أوج
دعائهما وإبتهالهما فقالا: وابعث فيهم رسولا منهم .. فاستجاب الله دعاهما
وبعث محمداً ﷺ في العرب من العرب أنفسهم رسولا فيهم لكنه رسول
للإنسانية جمعاء:

« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً: (١) » وما أرسلناك إلا
رحمة للعالمين .. (٢) وهو رسول منهم ليس غريباً عنهم حتى يسلس له قيادهم
ويأخذ بأيديهم إلى طريق الله ، وهذا الرسول العظيم « يتلوا عليهم آياتك .. »
وتلاوة آيات الله رضا من الله وتفضل منه سبحانه .. يرسل من خلقه رسولا
ليخاطبنا نحن العبيد الضعاف - بآياته?? إنه لإله رحيم يخلقه? .

وهذا الرسول: يعلمهم الكتاب والحكمة .. لقد رأى إبراهيم وإسماعيل
أمة جاهلة طائشة في تصرفاتها لا تحكمها شريعة هادية ولا يرشدها مرشد كريم ،
فطلبوا من الله أن يكون المبعوث فيهم منقاداً لهم من هذا الشقاء يتلوا على أسماعهم
ما أنزل الله ويعلمهم الكتاب والحكمة .. فلا يكتفي بمجرد تلاوة آيات الله ،
إنما يعلمهم الكتاب ويشرح لهم ما فيه ويدين لهم أحكامه ، ويوضح لهم ما لم
يعرفوه .. (وأرسلنا إليك الذكركلتين للناس ما نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون بها

(١) سورة الأعراف ١٥٨٧ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧/٢١ .

(٣) سورة النحل ٤٤/١٦

ويعلمهم مع الكتاب الحكمة . وهي الإصابتة في القول والعمل ، ووضع
كل شيء موضعه : أو هي كما قيل : المعرفة بالدين ، والفقه في التأويل ، والفهم
للشريعة ، وهذا هو أساس الإصابتة في كل قول وعمل : ولا عجب أن يخرج
مجد ﷺ من رعاية الأغنام رعاية أمم ، ومن الجهال علماء ، ومن الفوضى
والهمجية والإندفاع بحكماء : دان لهم العالم وأسلم لهم قياده فأخذوا بيده إلى
شاطئ الأمان ، وأتقوه من الدمار النفسي والاجتماعي والإنساني فعاش حياة
ملؤها السعادة والرضا والسكينة والهدوء .. ومن صفات هذا الرسول أنه :
(يزكيهم ..) والسكلمة توحى بما سيصير إليه أمرهم حتى يأتي هذا الرسول
فيزكيهم .. ولقد إنكشف هذا الغيب بعد إبراهيم وإسماعيل فكانت الأمة
العربية في حال من التصادم الخلق والاجتماعي والسياسي والديني هز كيانها وهدد
وجودها بما لا يتسع المقام لذكره .. ومنه ما قاله جعفر بن أبي طالب بين
يدي نجاشي الحبشة ، أيها الملك كنا قوماً أفل جاهلية: نعبد الأصنام? ونأكل
الميتة ونأثى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، وبأكل القوي منا
الضعيف ... إلخ ما قال . فطهرهم رسول الله وإرتفع بأخلاقهم إلى المقام الأعلى
فصاروا مضرب المثل في كل خلق كريم .

والله إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر
الناس لا يعلمون .. (١) .. وكل أمره حكمة .. لذا كان ختام دعاء إبراهيم
وإسماعيل : انك أنت العزيز الحكيم ..
وما أعظمهما من دعوات ظاهرات .. وما أكرمها من ضراعات وإبتهالات ..

(١) سورة يوسف ٢١/١٢ .

المكان القفر الموحش بلداً آمناً ، ولم يغفل إبراهيم عن تكرار هذا المطلب وذلك بعد أن رفع القواعد من البيت واسماعيل ، ونظر فوجد قبيلة جرهم ، ورأى أنساً واجتماعاً من حول بيت الله فقال : رب اجعل هذا البلد آمناً ، وبما يزيد هذا المعنى وضوحاً أنه قال في آخر دعائه : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق إن ربي لسميع الدعاء » .

ولعلنا نذكر ما قلناه في قوله سبحانه : فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً .. وقيمة هذا الأمان وأثره في مسيرة الحياة وأنه إذا ذهب الأمان ذهبت معه الحياة ، ولم يبق لها طعم ولم تعد فيها سعادة ، وهنا يرجو إبراهيم من ربه : أماناً عاماً شاملاً لا لمن في البيت الحرام بحسب إنما لكل من في البلد الحرام ، وهذا ما يؤيده قول رسولنا الكريم ﷺ حين حرم المدينة ودعا لأهلها كما حرم إبراهيم مكة ودعا لأهلها فيما رواه مسلم فقال : اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً وإني حرمت المدينة .. حرام ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يخط فيها شجر إلا لعلف ، اللهم بارك لنا في مدينتنا ، اللهم بارك لنا في صالحنا ، اللهم بارك لنا في مدنا ، اللهم اجعل مع البركة بركتين ..

والمطلب الثاني في دعاء إبراهيم : وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر .. وكان إبراهيم رأى أن الرزق كالإمامة التي طلبها لذريته فقال له ربه : لا ينال عهدى الظالمين .. فجعل الرزق قاصراً على من آمن بالله واليوم الآخر فبين له الإله الرحيم بخلقه : أن الرزق غير الإمامة يشمل البر والتاجر قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير .

وهذه الحقيقة يؤكدها القرآن دائماً فيقول سبحانه : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً » (١) .

يقول سبحانه : « قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » ،

(١) سورة الاسراء ١٧/٢٠

الفصل الرابع

دعاء إبراهيم لمكة وأهلها

قال تعالى : وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال : ومن كفر ، فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . (سورة البقرة ١٣٦/٢)

وقال تعالى . وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن تعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فأنتك غفور رحيم . (سورة إبراهيم ٣٥/١٤-٣٦)

هذا مادعا به إبراهيم عليه السلام لمكة وأهلها ، وهو دعاء جدير بالتأمل ، لذا أمر المولى سبحانه رسوله محمداً ﷺ أن يذكر هذا وأن يذكر به فقال : وإذا قال إبراهيم .. أرى وأذكر يا رسول الله ما قال إبراهيم لتردد على دعاة الشرك وأهل الباطل الذين ينتسبون لهذا النبي بأنه كان على صلة بربه وأنه دعا بهذا الدعاء فقال : رب اجعل هذا بلداً آمناً .. وهو — كعادته في دوام التضرع يبدأ بإعلان أن من يتاديه هو المرئي لهذا الوجود ، وإلحساس إبراهيم بتدبير الله لكل أمره بضيف هذه الربوبية لنفسه فيقول : رب ، فإذا تطلب يا إبراهيم قال : اجعل هذا بلداً آمناً ، وفي سورة إبراهيم قال : (رب اجعل هذا البلد آمناً) والبلد هنا مكة تلك التي حرمها الله يوم خلق السموات والأرض فهي حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة ، لكن إبراهيم يرجو من الله دوام هذا الأمان ، فانه واسماعيل كانا مسلمين ومع ذلك قالا : ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ودوام هذا الأمان الذي ثبت في علم الله من الأزل يراه إبراهيم قرين الحياة الهادئة المطمئنة . وذلك حين جاء بزوجته وابنه إلى هذا المكان فلم يجد أنيساً . ولم ينظر رفيقاً إلا ما تعودته من أنسه بربه ورعايته له فدعا ربه أن يجعل هذا

متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون « (١) .

ونظرة إلى قوله : « فأمتعته قليلاً » .. تريننا أن كل مافي الدنيا متاع قليل ولم لا ؟ وهو عرضة للزوال والفتناء ؟ وبعده هذا الذي يذكره القرآن في شأن من كفر : « ثم أضطره إلى عذاب النار » ..

والفرق بين المتاع الثاني وعذاب النار الذي يتدفع إليه الكافر اندفاع المضطر الذي لا يجد طريقاً سوى هذا الطريق الصعب ، هو ما تعبر عنه كلمة « ثم » وما تصوره « أضطره » .. فهو مطاردي بذنوبه ، نادم على فعله ، لا يجد له مهرباً من عذاب النار ، ويالهول هذا المصير ، ويا لتعاسة ويا لشقاء الكافرين ، وبئس المصير ..

نعم هذه دعوة ابراهيم قبل أن يقام بناء البيت ، وتلك دعوته بعد أن أقيم وارتنعت قواعده ؛ لكنه في المرة الثانية يقول لمولاه : « واجنبنى ونبي أن نعبد الأصنام » .. فهو يرجو من الله أن يجنبه وأبناءه عبادة الأصنام وأن تبقى هذه الأسرة مسلمة موحدة لا تشرك بالله شيئاً ، وما ذلك إلا لأن عبادة الأصنام متناهية وضلال : « رب إنهن أضللن كثيراً من الناس » .

وبما وهب ابراهيم من رقة القلب وسمو النفس يقول : « فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم » ..

فمن ينسب لابراهيم حقاً هو من يتبع ملته ، ومن يسير على طريقه : طريق التوحيد والاستسلام المطلق لله .. أما من عصي فان ابراهيم يطلب له الهداية ويرجو له المغفرة والرحمة ..

الباب الثالث

البيت . . دعوة التوحيد

الفصل الأول : بيت أساسه التوحيد . . وعنوانه الطهارة .

الفصل الثاني : بيت : تحن القلوب اليه .

الفصل الثالث : ما فيه من المنافع .

الفصل الرابع : تعظيم حرمة الله وشعائره . . والتبهي عن الإشرار وقول الزور .

الفصل الخامس : الذبح باسم الله :

(أ) طريق الإنسانية الصحيح .

(ب) صلته بدعوة التوحيد .

(ج) المخبتون . . وصفاتهم .

الفصل السادس : البدن :

(أ) كينية ذبحها .

(ب) ما فيها من حقوق .

(ج) التقوى هي المطلب الحقيقي من إراقة الدماء .

فنفهم حياتنا على هذا الأساس الذي أرساه الله . . انه سبحانه يأمر نبيه بمبدأ أن يذكر هذا لما فيه من تقرير للحقائق ورد على ادعاءات باطلة أثارها المشركون . . فلنذكر صلوات الله وسلامه عليه أن الذي بوأ لإبراهيم مكان البيت وأرشدته إليه وأذن له في بناءه هو الله العظيم . . فهل يعبد مع هذا الإله العظيم غيره؟ أو يشرك به سواه؟؟ ان هذا البيت للإنسانية جمعاء مركز إشعاع ينير لها الطريق الى وحدانية الله ، ويرشدها الى صاحب هذا البيت : فيذكر ولا ينمي ، ويشكر فلا يكفر ، ولهذا أمر الله إبراهيم أولاً أن يقيم بيته على التوحيد المطلق له فقال : أن لا تشرك بي شيئاً . .

وقف معي عند تلك اللمحة القرآنية من كتاب الله : فتقدير العبارة : وقلنا له لا تشرك بي شيئاً . . ولكنه يختصر ذلك لأن مقام التوحيد والنهي عن الإشراك خطير يتطلب أن يعمد اليه مباشرة دون أن يأتي به « وقلنا له » وحين ينهي عن الشرك قال : « لا تشرك بي » وذلك يعطى صورة كاملة لمن يريد أن يحيا موحداً لربه فان عليه أن يديم المراقبة لنفسه وأن يلاحظ كل مدخل للشياطين حتى لا يفسدوا عليه إيمانه بإلهة . وعليه أن يذكر أن هذا الأمر موجه الى أبي الأنبياء صاحب القدم الراسخ في معرفة الله وتزويجه عن كل شرك لكن في بناءه للبيت يحتاج الى الركائز التي سيقام عليها البناء . وفي قوة لا تشرك بي شيئاً . . « يجب أن نلاحظ كلمة « شيئاً . . » فهي تشمل كل مظاهر الوجود بل كل هذا الوجود .

فكل هذا الوجود عابد وإله هو المعبود ، وكله عاجز والله هو القادر ، وكله مريب والله هو الرب ، فاذا عبد أحد من الناس شجراً أو حجراً أو إنساناً أو حيواناً فقد أشرك بالله ، واذا انحرف عن شريعة الله وارتضى له منهجاً سواها واعتقد أن شرائع البشر وهما هجهم أفضل من شريعة ربه ومنهج الخالق العظيم ، فقد أشرك بالله . . فأى شيء . . وان قل - يجب الإحتراس منه حتى لا يقتحم حى التوحيد فيفسد على المؤمن عقيدته وتوحيدده اذا كان هذا هو الأمر الأول . فان الأمر الثاني لإبراهيم أشمل وأعم ، وهو

في الوقت ذاته يبين من يستحق أن يدخل هذا البيت وأن يكون من حماته وأهله ، ذلك هو قوله سبحانه . « وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود » .

هذا هو الأمر الثاني فاذا يعني !! ان التطهير كلمة لها ظل خاص ، فهي توحى بأن هناك شيئاً قد أحصاه نجاسة ويجب أن يطهر ، والبيت قد دنس بالأصنام كما ورد في التاريخ أن جرها والعاقلة كانت لهم أصنام في محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم . . والشرك رجس ونجس ، نجس في القلب والشعور ينعكس أثره على كل ما في الحياة فتبدو الحياة آسنة كريهة ممقوتة ، ورجس يصيب النظرة فيعميها عن الطريق فاذا بها تنخبط في الظلام . . فعلى إبراهيم أن يطهر البيت من الأصنام ؛ بل عليه أن يطهره أيضاً من البدع والأهواء والقاذورات الجسدية فيبدو ظاهراً باطناً . . ولم لا يطهر وهو بيت الله ! وأى شرف يناله هذا البيت ! وأى كرامة لمن يكفنه ربه أن يطهر هذا البيت العتيق . .

إن إبراهيم مأور من قبل الله أن يظهر بالتوحيد في بيت الله وأن يظهر هذا البيت من الأوثان وغيرها ليكون أهلاً للطائفين والقائمين والركع السجود وهؤلاء هم عماره ، وهؤلاء هم زواه ، وهؤلاء هم حماته . . والطواف والصلاة من خصائص بيت الله . . فالتاس في أنحاء الأرض اما أن يطوفوا حوله اذا ما قدموا إليه أو يصلوا متجهين إليه . . والطواف فيه تعظيم للبيت أو صاحبه ، والصلاة اليه صلة بالله وبينه مستمرة دائمة . والقرآن يعبر عنها بأهم أركانها من القيام والركوع والسجود ؛ وكان كل واحد من هذه الأركان جدير بتطهير البيت له ؛ فكيف وقد اجتمعت . .

هذه آية من سورة الحج أوضحت الأساس الذي أقيم عليه بيت الله .
وينت : لمن أقيم هذا البيت .

وفي سورة البقرة أمر لإبراهيم وإسماعيل . « وعهدنا الى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » . وهذا الأمر لإبراهيم

واسماعيل يوحى بأن هذا الأمر كان بعد أن شرعا في بناء البيت تأكيداً لأمر سابق لإبراهيم وحده؛ أما واسماعيل يشاركه البناء وقد بدأ فعلاً في رفع القواعد فإن الله يعهد إليهما ببناء بيته مطهراً من أقدار الشرك ومن كل قدر سوى الشرك حتى يعود بيت الله مستقراً للطائفين والعاكزين والركع السجود؛ فهو لمن يطوف من أهل البلاد ومن يعتكف فيه للعبادة منهم ومن أهل الحرم؛ وهو للمصابين المتوجهين إلى الله دائماً. الركع السجود.

هذا هو بيت الله وتلك هي أسسه من الطهارة والنقاء والتوحيد الخالص .
وهؤلاء هم عمارة الذين أقيم لهم هذا البيت . جعلنا الله من عمارة وزواره
وحماة .

الفصل الثاني

بيت تحن القلوب إليه

قال تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين
من كل فج عميق . » (سورة الحج ٢٢/٢٧)

هذا هو الأمر الثالث لإبراهيم عليه السلام : « وأذن في الناس بالحج يأتوك
رجالاً وعلى كل ضامر... يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا
اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . »

وهذا الأمر لإبراهيم يحتاج منا إلى حسن التأمل والنظر .. فهذا
إبراهيم بين جبال مكة قد أقام بيت الله .. يأمره ربه أن يدعو الناس للحج
إليه .. فإلى كم من الأمتار يصل صوته ، ومن الذي سيسمعه في هذا المكان
المحدود؟ ولكن إبراهيم العابد لله لا بد أن يستجيب للأمر ، ويسأل إبراهيم
ومن يبلغ صوتي يارب .. قال : أذن وعلى البلاغ ، فصعد إبراهيم خليل الله
جبل أبي قبيس ونادى بأعلى صوته : يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا
البيت ليبيئكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار فجيءوه ، فأجابه من كان في أصلاب
الرجال وأرحام النساء : اييك اللهم لبيك ، فمن أجاب يومئذ حج على قدر
الإجابة : ان أجاب مرة فمرة ، وان أجاب مرتين فمرتين .. وفي رواية ابن عباس
قال إبراهيم : كيف أقول ، قال : قل يا أيها الناس ان الله تعالى كتب عليكم
الحج إلى البيت العتيق ، فسمعه أهل السماء والأرض .. ألا ترى أنهم يجيئون
من أقصى البلاد يلبيون??

والناس الذين أذن فيهم إبراهيم بالحج ، هم كل البشر ، ولا بد أن تتساءل
هنا : هل اكتفى الإسلام الذي أعزنا الله به بمجرد هذا الأذان وقال : ان
صوت إبراهيم وصل إلى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فلم نحمل السلاح ،

ولم تقابل الناس على هذا الدين؟؟ فلترك البشر وهم سيأتون الى بيت الله الحرام مستسلمين طائعين ، فلنتنظر عند البيت لتراهم أفواجاً أفواجاً ، من كل فج عميق قد قدموا الينا في شوق يكبرون ويملأون ويدعون ويدعون ويعنون أنهم مسلمون؟! هل حدث هذا؟ أو أن التاريخ يقول: ان أهل الإيمان هم حماة هذا البيت يصنع الله بهم ما يريد للناس من خير ، وعليهم أن يحملوا آذان ابراهيم لكل انسان عرفوه على وجه الأرض!

فهل فعلنا ذلك؟ نعم فعل المسلمون هذا في أول عهدهم حين شرقوا وغربوا حتى جاءت وفود الأرض تقول: ليك اللهم ليك.. «خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيماً ، الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً» (١).

فلا تكن من هؤلاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، واحمل دينك وانطلق به في كل مكان ، وأدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وحطم معاول الظلم التي تعترض طريق نور الله حتى يصل نداء الإسلام الى شعوب الدنيا فيأتون إليك يلبون النداء .

وقد أراد الله لدعوة ابراهيم أن تصل للعالمين ، وذلك قوله : « يا توك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .. »

شئنا أن نأخذ في الناس بالحج انطلقت دعوته عبر الزمن من لحظة أن وقف على جبل أبي قبيس والى أن تقوم الساعة .. وذلك ما يعبر عنه : « يا توك .. هيا تين » فهو اتيان مستمر لا تقطع أبداً ، ولو كشف الله عن بصيرتنا لرأينا أنه مامن لحظة في ليل أو نهار الا وهناك متجه لهذا البيت أو من يستعد للقدوم إليه ، أو من يتوجه اليه راجعاً وساجداً ..

ومن يأتي ، انما يأتي لله في بيته ، لكن الله جعل الإتيان لا ابراهيم تشریفاً له وتكريماً ، وكان من أتى البيت أتى ابراهيم ولي دعوته .

(١) سورة مريم ١٩ ، ٥٩ ، ٦٠

ولنتأمل صورة هؤلاء القادمين للبيت : رجالا وعلى كل ضامر ، رجالا : أي يمشون ، وعلى كل ضامر : أي ركبانا على كل بعير مهزول ، أتعبه بعد لشقه فهزله أو زاد هزاله ، وفي اختيار هذا التعبير « وعلى كل ضامر » بدل « ركبانا » ما يدل على ما يتحملونه من مشقات السفر وبعد الديار ؛ أما الذي أتى البيت سيراً على الأقدام فيكفيه ما يلاقيه من صعاب وما يبذله من جهد ، ولهذا قدمه القرآن على الركب ، وهذا مادعا بعض الصادقين في إيمانهم الى أن يحجوا مشاة أن يتمنوا أن يحجوا مشاة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما آسى على شيء فأنى الا أنى لم أحج ماشياً حتى أدركني الكبر ، أسمع الله تعالى يقول : يا توك رجالا وعلى كل ضامر ، فبدأ بالرجال (أي من يأتون على أرجلهم) قبل الركبان .

ولتكتمل تلك الصورة : صورة من أجاب نداء ابراهيم يقول سبحانه : « يأتين من كل فج عميق » فجعل الإتيان للابل وكأنها جاءت تحج أيضاً ، وهو صورة بارعة لإبل جاءت الى بيت الله واشتاقته له فأتت من كل فج عميق أي من كل طريق بعيد ، لكن اختيار كلمة . من كل فج عميق ، لها إيحاءاتها الدالة على كثرة هذه الفجاج وامتدادها الى مسافات بعيدة سحيقة ، وكأنك حين تنظر الى مداخل مكة يهولك ماترى من أمواج البشر التي تندفع من كل طريق يحدها شرقها ويدفعها حثيثها الى بيت الله الحرام .

ويروى عن ابن عباس قال . أتاني رجل فقال . انى أجرت نفسي من قوم على أن أخدمهم ويحجرون بي فهل لى من حجج ؛ فقال ابن عباس . هذا من الذين قال الله تعالى ؛ « لهم نصيب مما كسبوا » .. وعنه أيضاً في قوله ؛ ليشهدوا منافع لهم . قال ؛ منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة . فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ؛ وأما منافع الدنيا فمما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والمذابح والبجارات .

وإذا أمنت النظر فى قوله تعالى ؛ « ليشهدوا منافع لهم » ستجد أن كلمة « منافع » تشير الى أنها كثيرة العدد . عظيمة الأثر . وكلمة « لهم » توحى بأن الفائدة عائدة لحجاج بيت الله . فبذلهم وتعبهم له ما يقابله من منافع الدنيا والآخرة . والمشاهدة — وهى لا تكون الا فى أمر عظيم — تدفع الى سرعة لإجابة دعوة ابراهيم عليه السلام . كما أنها تدل على قيمة هذه المنافع التى أراد الله للناس أن يشهدوها .

وأول تلك المنافع تبدأ من لحظة توجه القلب لأداء التبريضة . والقلب إذا توجه مثل ذلك اعتدل على طريق الحق . وتلك هى السعادة كل السعادة . وبعد أن يتوجه القلب يستخير المسلم ربه . وفى ذلك منافع . ويستشير أصحابه . ويقضى ديونه . ويرد ما للناس عليه من حقوق ويستعد للسفر . ويودع الأهل والأحباب . وهو بذلك يذكر يوم الوداع الأكبر . ويوم السفر الأعظم . ويتجرد من ملابسه وزينته عند الميقات ليلبس ملابس الإحرام . وفى هذا مساواة الإسلام وأدبه . وفيه التجرد من زينة الحياة الدنيا للقدوم على الله . وفى دخوله مكة ؛ حرم الله . وفى الطواف حول البيت والصلاة فى مقام ابراهيم وحجر اسماعيل والسعى بين الصفا والمروة وما فى ذلك من تذكير لماضى المجاهدين وتربية على خلق الإسلام العظيم .

منافع . وأى منافع . وفى الوقوف بعرفات ؛ تذكير يوم الحشر . وهو يوم رهيب . أظننا الكريم تحت ظل عرشه فى هذا الوقت العصيب ..

ولنواصل رحلتنا لنشاهد المنافع فى رى الجمار ونحج الهدى وطواف الإفاضة

الفصل الثالث

ما فيه من المنافع

قال تعالى : «... ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات . على ما رزقهم من بهيمة الأنعام .. فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقتضوا ثمنهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . (الحج ٢٢/٢٨، ٢٩)

هذا ابراهيم قد استجاب لأمر الله وأذن فى الناس بالحج فأجاب نداه كل من كتب له الحج الى يوم القيامة ، ومن يوم أن أذن ؛ والأشواق تدفع الناس فى بلاد الله لشدة الرحال اليه . يأتون رجالا وعلى كل ضامر ، يأتين من كل فج عميق .. فلماذا قدمت هذه الأفواج من كل بقاع الأرض !!

يقول الحق تبارك وتعالى : ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقتضوا ثمنهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ..

فى هذه المنافع التى جعلها الله فى الحج ودعا الناس ليشهدوها من عهد ابراهيم الى عهد محمد عليهما السلام ، انها منافع الدنيا والآخرة . ومنافع الدنيا تبع لمنافع الآخرة ، فالحج هو الطواف والسعى والوقوف بعرفة ، والمزدلفة ونحر الهدى وسائر مناسك الحج ، ويدخل فيها منافع الدنيا على وجه التبعية . والرخصة فيها دون أن تكون هى المقصودة بالحج فقد قال الله تعالى . « ليس عليكم جناح أن تنفقوا فضلا من ربكم » (١) .

فجعل ذلك رخصة فى التجارة فى الحج ..

لولى النعمة ؛ وخرج عن حدود الأدب وأصبح شيطاناً رجياً ؛ ولذلك يقول الله تعالى . « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » .

ويجعل طاعة المؤمنين لأوليائهم الشياطين إشراكاً به فيقول . « وإن أظعنتمهم إنكم لمشركون » .

فالذكر على ما يذبح — اذن — لا علاقة له باللحم أو الدم أو العظم انما علاقته في تحديد صلة الإنسان بخالقي هذا الوجود ؛ وأن الشيء الذى لم يذكر اسم الله عليه فسق لا يصح أن يأكل منه ؛ فكأنه اضراب من أهل الايمان عملاً لا يتوجه به لله ؛ ومفصلة بين المؤمنين والكافرين في واقع الحياة . المؤمنون ملتزمون بمنهج الله في أن الحياة ، في كل أحوالها ومظاهرها يجب أن يرفع عليها علم العبودية لله ؛ والكافرون ملتزمون بانعاج الشياطين وأن الحياة محكومة بالهوى والحمافة البشرية والضعف الانساني والظلم والظلمات والانتقادات بعيداً عن الله الى آلهة مدعاة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ؛ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

والأيام المعلومات فرصة ليعمق المسلمون فيها حقيقة المنهج الإلهي ؛ ويذكروا دائماً في تلك الأيام المشرفة برضا الكريم اسم الله على ما يذبحون ؛ فيصدروا عن الحج وقد امتلأت نفوسهم ثقة في خالقهم ورازقهم وارتبطوا بمنهجه الذى لا يضل ؛ وطريقته التى يشع منها الأمان وتفيض منها السعادة ؛ وعليهم أن يعرفوا أنه اذا كان عدم ذكر اسم الله على ما قدموا من هدى وما نحدوا من أضحية أدى الى الخروج عن الاسلام والايمان فكيف ومجرى حياتهم كلها محكوم بغير حكم الله .

وأن دينهم تقلص فلم يبق منه الا فرائض العبادات وبعض قوانين الأحوال الشخصية ؛ وكان المسلمين في بلادهم يعيشون غرباء ؛ فلهم قوانين للاحوال الشخصية ؛ أما حكم الاسلام للحياة ؛ أما توجهه لسياسة السلم والحرب ؛ أما قيمه الرفيعة ؛ أما اسم الله الذى يجب أن يذكر مع كل لحظة وإشارة ؛ ومع كل قول أو عمل ؛ ومع كل صغيرة وكبيرة فإنه يحتاج إلى شجاعة المؤمنين

وبذلهم ليرفع اسم خالقهم على تلك الحياة فتظهر من أرجاس الجاهلية وأقدارها وتعود — باسم الله — آمنة مطمئنة لا تعرف لها سواه ربا ؛ ولا ترضي بغيره الها ؛ ولا تطلب غير كتابه دستوراً ؛ ولا تترك أمرها للشياطين فيكون لها الهلاك والبور والخسران المبين .

فاذا نحررت هديك أو أضجيتك فاستقبل القبلة وقل باسم الله . الله أكبر اللهم منك واليك ، ان صلاتي ونسكى ومحياي ومماتي لله رب العالمين . واستحضر في ذهنك حال أليك ابراهيم حين هم يذبح اسماعيل تنفيذاً لأمر الله ، ففدى الله اسماعيل بذبح عظيم . وأنت مطالب ببذل نفسك ودمك لربك ولكنتك تتقدم بشاتك بدل مهجتك طلباً لمرضاته وشكرآ له على عظيم عطائه ، وبعد أن أرقت الدم باسم الله يقول لك مولاك : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » .

وتلك هى حضارة الاسلام وقيمه الخالدة التى تبدو في الاحساس بحاجة الرؤساء والنقراء ومشاركتهم فيما يأكلون ، وهنا تبدو مساواة الاسلام واقعا حياً ، وعدالته الاجتماعية طريقتاً واضحة ، لامهارات ولا شعارات ولا عناوين براقة كما هو الشأن في أمم انحرفت عن هدى الله وهدى رسوله .

والأمر هنا « فكلوا » . للاباحة فقد كان أهل الجاهلية يتخرجون من الأكل علواً وافتخاراً على الفقراء ، فأباح الله للمؤمنين ذلك ، فلا حرج عليك أن تأكل أو تدع .

وقد استحب النقياء أن يأكل المضحي والمهدي من لحم ما ضحى أو أهدى اقتداء برسول الله ﷺ ، فقد ثبت عنه أنه عليه السلام لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها ، وقال عبد الله بن وهب : قال لى مالك : أحب أن يأكل من أضحيته لأن الله يقول : فكلوا منها ، قال ابن وهب : وسألت الليث فقال لى مثل ذلك ، الا أن مشهور مذهب مالك رضي الله عنه أنه لا يأكل من ثلاث : جزاء الصيد ، ونذر المساكين ، وفدية الأذى ، ويأكل مما سوى ذلك اذا بلغ محله واجباً كان أو تطوعاً ، ووافقه جماعة من السلف وفقهاء الأنصار . وعند الشافعى وأبي ثور : ما كان

من الهدى أصله واجباً فلا يأكل منه ، وما كان تطوعاً أو نسكاً أكل منه وأهدى وأدخر وتصدق ، والمتعة والقران عنده نسك . ونحوه مذهب الأوزاعي ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : يأكل من هدى المتعة والتطوع ولا يأكل مما سوى ذلك مما وجب بحكم الاحرام .

هذا هو الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه وما فيه من نافع ، والأمر الثاني الملازم له : اطعام البائس الفقير .. قالبائس : هو الذي أصابته شدة ومحنة من شدائد الزمن ومحن الأيام وان لم يكن فقيراً ، والفقير هو من لا يجد شيئاً على الاطلاق فهو يحتاج شديد الاحتياج ، فإذا اجتمع البؤس والفقير بدأ الإنسان في صورة تستحق الإشفاق وتستدعي العون السريع ، ومجتمع الإسلام لا يترك هذه الصورة المعتمة أبداً ، أما يتكاتف ويتعاون ليغيرها مندفعاً في ذلك بصدق الإيمان وشفافية الإخلاص التي تتأثر بمنظر بائس فقير .

والاطعام هنا لون من ألوان التكافل الاجتماعي ومنهج من مناهج الإسلام في ربط الإنسان بأخيه الإنسان في رفق ومودة وإخاء ، دون من أي أذى ، علينا اذن أن نلمي نداء أينا ابراهيم عليه السلام لنشهد هذه المنافع وانذكر اسم الله في أيام ذى الحجة المباركة على مارزقنا من بهيمة الأنعام ولنشارك الفقراء في الأكل مما أهديتنا ونحرنا . ولتطعمهم انذهب يؤسهم وبقومهم ففعل الله أن يتقبل منا وأن يحزل لنا العطاء .

وإذا كان هذا هو الأمر الأول والأمر الثاني فقد بقيت أوامر ثلاث نقرؤها في قوله تعالى : « ثم ليقتضوا تفهمهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق . فماذا تعنى هذه الأوامر الثلاثة !!

أما التفت : فهو ما يحصل للمحرم من طول الشعر والظفر مما هو ممنوع منه نظراً لتجرده وتشبهه بموقف الحشر وبعده في أيام الإحرام عن مظاهر الزينة وقضاء التفت : انزاله ، فالمعنى اذن ليزيلوا ما عليهم من آثار البعد عن الزين والتجمل وذلك بمحلق الشعر أو تقصيره ، وتقليم الأظفار وتنف الإبط وخلع ملابس الإحرام وغير ذلك ..

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : التفت : النسك كلمة من الوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة ورمى الجمار ، والقضاء — على هذا — بمعنى الأداء وكأنه قيل : تم ليؤدوا نسكهم ، وهو كما قال ابن عباس : التفت : المناسك كلها ، وهذا كله قريب من الأول ، فان الإنسان لا يتحلل من إحرامه إلا بعد قضاء المناسك أو معظمها .

ولا تعجب من مظهر المحرم وأمر الله له بالابتعاد عن زينة الدنيا ، فقد قيل لبعض الصالحين : ما المعنى في شعث المحرم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك الاعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك في بذلها لطاعته .

والأمر الثاني من الأوامر الثلاثة : وليوفوا نذورهم ، فيه يقول سفيان الثوري رضي الله عنه : إنه نذور الحج ، فكل من دخل للحج فعليه من العمل فيه : الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، وعرفة والمزدلفة ، ورمى الجمار على ما أمروا به وكأن مناسك الحج لزممت عتق الإنسان المسلم لزوم النذر لصاحبه فأصبحت واجبة الوفاء ، والكلمة مع ذلك تبقى لها ظل خاص ، فهي توحى براحة النفس والشرح الصدر حين يتحلل المؤمن من إحرامه بعد أن يكون قد أدى ما أوجبه الله عليه ، شأن المدين إذا أدى ما عليه من دين ، وشأن من نذر وألزم عقده أمراً لا بد فيه من الوفاء ، فلما وفي بنذر أحس بفضل الله الذي وفقه وأمانه ، وشعر بالرضا بغير كيانه ، وتلك سعادة أهل الايمان حين يبذلون ويؤدون ما عليهم من واجبات .

أما الأمر الثالث : فهو قوله سبحانه : « وليطوفوا بالبيت العتيق » . فما هو البيت العتيق ؟ ولماذا سمي بذلك ؟ إنه بيت الله الحرام الذي تشد إليه الرحال .. وقد سماه الله بالعتيق لأنه أول بيت وضع للناس في هذه الأرض فهو قديم قدم هذه الحياة ، وعتيق لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار من يوم أن أوجده سبحانه وإلى آخر الزمان إن شاء الله .. وعتيق : لأن الله عز وجل يعتق فيه رقاب المذنبين من النار ..

(م • م — الحج)

وهذا البيت هو الذى أمرك ربك بالطواف حوله لتعظي بالشرف الأكبر والخط الأوفر .

والطواف أنواع أربعة : طواف القدوم إذا دخلت الحرم المكي ، وهو ليس بركن ولا واجب ، وطواف الإفاضة ، وهو طواف الركن ، وهو المقصود في قوله تعالى : « وليطوفوا بالبيت العتيق » . وطواف الوداع ، وهو سنة لا يجب بتركه شيء عند مالك والشافعي وداود وابن المنذر ، وواجب يلزم بتركه دم : وهو قول أبي حنيفة والامام أحمد ورواية عن الشافعي ، أما الطواف الرابع فهو طواف التطوع ، ويذبح للحاج أن يغتتم فرصة وجوده بمكة ويكثر من طواف التطوع والصلاة في المسجد الحرام .

فابدأ طوافك مضطجعا (١) محاذيا الحجر الأسود مقبلاله أو مستلماً أو مشيراً إليه كيفاً أمكنك جاعلاً البيت عن يسارك قائلاً : بسم الله الله أكبر ، اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابتك ، ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك ﷺ . فإذا أخذت في الطواف فمن المستحب في طواف القدوم أن تسرع المشى وأن تقارب الخطأ مقترباً من الكعبة في الأشواط الثلاثة الأولى وهو ما يعرف « بالرمل » . ويمشي مشياً عادياً في الأشواط الأربعة الباقية ، ومن المستحب لك أن تستلم الركن اليماني وأن تقبل الحجر الأسود ، أو تستلمه في كل شوط من الأشواط السبعة ، ومن المستحب كذلك أن تكثر من الذكر والدعاء ، ولا تتقيد بشيء مما يردده المطوفون ، وقل في الطواف عند كل شوط : رب اغفر وارحم ، واعف عما تعلم وأنت الأعز الأكرم . ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول بين الركنين : « اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه ، وأخلف علي كل غائبة بخير » .

(١) الاضطجاع : كشف ضبع الرجل أى كنفه الأيمن بأن يجعل طرف رداءه تحت إبطه الأيمن وبعضه على عاتقه الأيسر ، وهو خاص بطواف القدوم . ولا يسن إلا عند إرادة الطواف لا كما يفعله العوام من حين يحرمون .

وأعلم أنك في ضيافته الرحمن . وأن الله ينزل رحماته وبركاته في هذا الجمع الكبير وهذا المقام العظيم ، وتذكر وأنت تقبل الحجر أن رسولك ﷺ أستلم هذا الحجر ووضع عليه شفتيه مقبلاً وبكى طويلاً ، فإذا عمر يبكي طويلاً ، فقال عليه السلام : يا عمر هنا تسكب العبرات ، فإذا فرغت من طوافك فصل ركعتين عند مقام إبراهيم ، فعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ حين قدم مكة طاف بالبيت سبعاً وأتى المقام فقرأ : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » فصلي خلف المقام ثم أتى الحجر فاستلمه .

وإذا طفت طواف الوداع فقف عند الملتزم (وهو ما بين الركن والباب) وأدع ربك كثيراً ويستحب أن تدعو بما أترع ابن عباس رضي الله عنهما فتقول : اللهم إني عبدك وابن أمتك حملتني على ماسخرت لي من خلقك ، وسيرتني في بلادك حتى بلغتني — بنعمتك — إلى بيتك ، وأعتنتي على أداء نسكي ، فإن كنت رضيته غني فازددني رضا ، وإلا فمن الآن فأرض غني قبل أن تنأى عن بيتك داري ، فهذا أوان انصرافي — إن أذنت لي — غير مستبدل بك ولا ببيتك ، ولا راغب عنك ولا عن بيتك ، اللهم فاصحبنى العافية في بدني والصحة في جسمي ، والعصمة في ديني ، وأحسن متقلبي ، وارزقني طاعتك ما أبقيتني ، وأجمع لي بين خيرى الدنيا والآخرة « إنك على كل شيء قدير » أرأيت هذه المنافع وتلك البركات التي أفاضها الله على حجاج بيته وزواره ؟ إنها منافع في الدنيا والآخرة . وبركات من الله وتفتح ورحمات .. وتلك هي التي يجب أن يستهان من أجلها بكل صعب .. ومن أجلها ترى الناس يأتون رجلاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

كشفاً

مجاهد : الحرمات : مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها ، وتعظيم هذه الحرمات : أن تشعر في نفسك بما لها من إجلال وما في انتهاكها من اعتداء على حق الله وخروج على شريعة الله ، فيدفعك هذا الشعور إلى الامتثال والطاعة والبعد عما حرم الله : خوفاً منه وتعظيماً لأمره ، فإذا ما كان هذا الامتثال في تعظيم مكة والبيت المبارك وقضاء المناسك وجب أن يكون أمثالاً لا يعتربه شك ولا تخالطه شبهة ، ووجب أن يكون الإحساس المرهف بعظمة الإله وعظمة ما شرع من مناسك هو رائد الإنسان المسلم .

ولهذا التعظيم وذلك الامتثال آثاره الطيبة التي تعود على المؤمن بالخير والبركة ولذلك يقول سبحانه : « فهو خير له عند ربه » . إنه خير ثابت دائم لأنه من عند الكريم ، وخير مرتبط بتعظيم حرمات الله ، وعلى قدر تعظيمك يكون مالك من الخير في الدنيا والآخرة ، إنه خير عميم يحيط بالمؤمن في كل حالاته وإلا ؟ وهو خير له عند ربه ، وقد تعودنا من ربنا كراماً وفضلاً وجوداً وعطاءً وإذا كان هذا من عند الإله الربني فإنه يتناسب مع قدره سبحانه . والعطية على قدر المعطى ، فإذا وهب وزير ووهب رئيس وملك أدركت أن هدية الرئيس والملك أعظم من هدية الوزير ، وهدية الوزير تكون أكبر وأعظم من هدية من هم دونه في المرتبة .. وهكذا ، فإن كان هذا الخير من عند الله فهو خير ليس له حدود أو قيود .. إنه يشمل الدنيا والآخرة ويسير الإنسان في جميع حركاته وسكناته .

ولما كان ذبح الهدى من شعائر الحج ، ولما كان تحريم الصيد على المحرم مما يوهم تحريم ذبح بهيمة الأنعام ، بين الله أن ذبحها حلال ، وبين ما أحله فيها فقال : « وأحل لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم » ..

أى : وأحل لكم أكلها إلا ما يتلى عليكم حكم تحريمه في قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة » (أى التي ماتت من شدة الضرب) والمتزدية (وهي التي تقع من مكان مرتفع فتصوت) والنطيحة (وهي التي تنطحها أخرى فتصوت من النطاح)

الفصل الرابع

تعظيم حرمات الله وشعائره

والنهى عن الاشرار وقول الزور

قال تعالى : « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحل لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق » . (الحج ٢٢/٣٠-٣٣)

إن الإله العظيم الذي أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج ليشهدوا منافع لهم أراد بنا خيراً ، شأنه في كل ما فرض وشرع ، لذا تراه بعد أن بين ما يجب علينا في أداء شعائر الحج يقول : « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » . فلتقف عند هذه الإشارة « ذلك » ولتعرف حرمات الله كيف تعظم ، وما في ذلك من خيري الدنيا والآخرة .

فالإشارة إلى بناء البيت وما بعده من أذان إبراهيم وشهود المنافع وذكر اسم الله في الأيام المعلومات على بهيمة الأنعام ، وإطعام البائس الفقير ، وقضاء النصف والوفاء بالنذر وطواف الزيارة للبيت العتيق .. وكل واحد من هذه يشع من أفضه الخير العميم وتقيض من جناباته معاني العظمة والرفعة التي أرادها الله لبني الإنسان .. وكل واحد منها جدير أن يشار إليه « بذلك » .

وحرمات الله : هي كل ما وجب القيام به ، وحرمت التفريط فيه .. وقال

وما أكل السبع (أى ما قتلته بهض سباع الوحوش كالأسد والذئب) إلا ما ذكيت^(١) (مما يمكن أن تذبحوه وتأكلوه) وما ذبح على النصب (١) (أى ما يذبحه المشركون تقرباً للأوثان) فكل ذلك حرام أكله .

وأمر آخر ملازم للذبح هو الاحتفاظ بعقيدة الإسلام نقية من كل شرك منزّهة عن كل رجس ، ولذلك يقول سبحانه : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » .

ولتدبر هذا النهي عن الإشراف بالله بعد بيان ما أحل وما حرم من الأنعام فإن الأنعام لا تحل دون أن يرفع عليها شعار الإسلام : بسم الله ، الله أكبر ، ومع ذلك ، مع إعلان هذه التسمية فإن أمر التوحيد يحتاج إلى ملاحظة ومراقبة وهذا ما يعبر عنه قوله : « فاجتنبوا » فإن الإجتنب : ترك مع حذر وملاحظة وابتعاد مع تحرز وتمحيص ، والإجتنب : لعبادة الأوثان أو التقرب إليها أو الذبح عندها ، ولكن الله يقول : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » .

والرجس هو النجس ، فكأنه قال : ابتعدوا عن طريق النجاسة وأتركوه جانباً واحذروا الوقوع فيه ، وهذا الرجس والنجس الذى وصل إلى متناه يتجمع كله فى الأوثان ، قال القرطبي : الوثن : التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها ، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً ، وقال عدي بن حاتم : أتيت النبي ﷺ وفى عنق صليب من ذهب فقال : ألقى هذا الوثن عنك ، أى الصليب ، وسمى الصنم وثناً لأنه ينصب ويركز فى مكان فلا يبرح عنه ^(٢) .

أرأيت مافى الأوثان من خطر على عقيدتك وإيمانك ، وما فيها من رجس ورجز ونجس ؟ إنها نجس فى التصرف ، ونجس فى الشعور والإدراك ، وأذى يصيب صاحبه ويصيب الناس جميعاً ، فيلوث معانى الشرف والنبل والطهر

(١) سورة المائدة ٣/٥

(٢) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٥٤

والرفعة والساحة وكل ما ينبعث من الإيمان بالله من تلك المعانى الغالية الطاهرة وكان الثوب إذا تنجس لا يطهر إلا بالماء ، فالقلب كذلك إذا تنجس بالشرك لا يطهر إلا بالإيمان ، وفرق بين النجس والطهر والرجز والنعيم ، والضعفة والرفعة ، والشقاء والسعادة ، لقد بدت عقيدة التوحيد فى أمر خاص هو ذكر اسم الله على ما يذبح إعلاناً من أهل الإيمان عن تحسُّد وجهتهم فى الحياة ، وانطلقت عقيدتهم طاهرة نقية مبتعدة عن النجس والرجس وعبادة الأوثان والأصنام ، ولم تعرف لها إلا الله رباً وكتابه دليلاً ونبيه رسولاً ، ففاض طهرها ونقاؤها على العالمين فسعد الإنسان فى كل مكان بهذا الرحاب الطاهر ، واستمتع بطهر الخلق والسلوك والقلب والعقل الذى جملة أهل التوحيد ، أهل الطهارة والنقاء .

والقرآن كما يأمر باجتنب الرجس من الأوثان بأمر أيضاً باجتنب قول الزور ، وهما أمران متلازمان فى القرآن والسنة ، ولم لا ؟ والشرك : زور وبهتان وانحراف عن هدى الله ، وقول الزور : ضعف بشرى ، يوحى بفقد الثقة فيما عند الله والتماس الخير عند الخالق ، ويوحى بضعف الإيمان أو فقدده حين يتوجه العبد بقوله وفعله لمرضاة الناس ، وفى قول الزور افتراء على الله ، وقد كانت الكفرة تحرم البحيرة والسائبة ونحوها وتدعى أن الله قد حكم بذلك (والبحيرة : هى التى تشق أذننها ويمنع درها لطواغيتهم وآهتهم فلا يجلبها أحد من الناس) ، (والسائبة : هى التى يسيبونها لآهتهم فلا تجبس عن رعى ولا ماء) .

وفى قول الزور كما فى الشرك : هدم المجتمعات وقضاء على أمنها ، وقلب لحقائق الحياة .

لهذا قال ﷺ لأصحابه : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله الاشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور . فما زال يكررها حتى قالوا : ليته سكت (١) .

(١) متفق عليه .

ووقف عليه السلام يوماً خطيباً فقال : يا أيها الناس عدلت شهادة الزور
إشراكاً بالله (قالها ثلاثاً) ثم قرأ : فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا
قول الزور « (١) » .

فعليك أن تحمي عقيدتك وقلبك من مداخل السوء ، وأن تحيا طاهراً
بطهارة الإيمان ، نقياً ببقاء الاسلام ، وجانب الرجس كله : ظاهره وباطنه ،
وأحذر أن تقول زوراً أو تنحرف عن هدى مولاك أمام ضغط عرض زائل
أو متاع فان فتخسر خسراناً مبيئاً .

والإله العظيم يؤكد هذا المعنى ويرسي قواعده في النفوس وهو يبين على أي
حال يكون اجتناب الرجس من الأوثان فيقول : « حنفاء لله غير مشركين به »
ويبقى بهذا الاخلاص في أعماق الحس الإنساني وهو يرسم صورة منفرة للشرك
والمشركين . وذلك إذ يقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه
المطيير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » .

والحنيف هو : المسلم الذي يتخفف عن الأديان الباطلة ويميل إلى الدين الحق
وقيل هو الذي يستقبل البيت الحرام على ملة إبراهيم ، وقيل هو الخالص ، وقيل
هو من أسلم في أمر الله فلم يلتجئ في شيء ، وذلك مأخوذ من قوهم : رجل
أحنف ، ورجل حنفاء ، وهو الذي تميل قدماه : كل واحدة إلى أختها
يأصابعهما ، وإنما قيل للمسلم حنيف : لعدوله عن الشرك .

وفي الحديث إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتاتهم عن دينهم
وخرمت عليهم ما أحلت لهم « (٢) » .

وكان الحق حين قال : فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، أراد أن يصور
لنا عبادة الأصنام شريفاً مخيفاً مفرغاً في طريق الإيمان يقف للإنسانية بترصدها .

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٢) رواه مسلم .

ويتحين القرض للانقضاء عليها ، أنه مهلك لها ومدمر لكيانها ، فإذا يفعل
من أساد النجاة؟ إلى أين يهرب؟ وكيف يهرب؟ إلى أين؟ وكيف؟ نعم
يهرب إلى الله ، ويميل بعيداً عن هذا الشبح الخفيف فهكذا فعل أبو الأنبياء
إبراهيم عليه السلام : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً »^(١) .

وهذا أمر خاتم الأنبياء عليه السلام : قال تعالى : « ثم أوحينا إليك أن
أتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »^(٢) .

قال سبحانه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها
لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم : ولكن أكثر الناس لا يعلمون »^(٣) .

وهذا أمر الله أهل الكتاب فقال : « فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان
من المشركين »^(٤) .

والعرب كانت تسمى من على دين إبراهيم بالحنيف ، وكان عبدة الأوثان في
الجاهلية يقولون : نحن حنفاء على دين إبراهيم ، وكانوا يقولون لمن أختقت وحج
البيت حنيف لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان
وحج البيت ، فجاء الإسلام بعقيدة التوحيد بعيدة عن طريق الشرك والباطل ،
وما ترك شيئاً مما فعل إبراهيم ، فكان الكمال من شيمته ، والاعتدال من علامته .

ويضاحاً لهذا الطريق يقول : « غير مشركين به » . وانظر إلى هذه
العبرة .. إنها لم تحدد ما يجب ألا تشركه مع الله ، وذلك ليصل المؤمن في
توحيده إلى هذه الشناقية الحساسة من صدق الاخلاص ، والاحتراس من
مداخل الشرك ، فلا أوثان ، ولا أصنام ، ولا طواغيت ، ولا أي شيء صغر

(١) سورة النحل ١٦/١٢٠ ، ١٢٣

(٢) سورة الروم ٣٠/٣٠

(٣) سورة آل عمران ٣/٩٥

(٤) سورة آل عمران ٣/٩٥

أو كبير ، عظيم أو حقر ، يستحق العبادة ويتوجه إليه الإنسان بالطاعة غير الإله الخالق الرازق .

وتأمل صورة المشرك التي رسمها تلك العبارات : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » .

وأول ما تلاحظه في هذه الصورة : هو الحركة المستمرة التي يعرضها القرآن للمشرك . تتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق .

وحين يأتي بلفظ الجلالة قائلاً : « ومن يشرك بالله » بين مدى سوء أدب المشرك وجهله وحقه واعتدائه على حق الله في أن يعبد وحده .

وأنظر إلى صورة إنسان في مكان شاهق مرتفع سقط من هذا الارتفاع ، وإذا بطيور السماء تنهش جسمه وتمزقه إرباً وتوزعه في كل مكان ، أو تأخذه الريح العاصفة فتلقي به في مكان بعيد ناء يتعرض فيه للمخاطر والمهلك .

إن الإيمان رفعة ورقى ، به يشعر الإنسان بالإنسانية ، إنه هدية السماء التي ينظر منها أهل الإيمان إلى غيرهم فيرونهم أقزاماً . فمن الذي يرتفع إلى هذا الأفق وتلك السماء ثم يسقط عنها ؟ إن الله الذي خلق الإنسان أودع في فطرته معرفته ، والإيمان به ولذلك يقول سبحانه :

وإذا أخذ ربك من بنى آدم : من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إن كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية ومن بعدهم أفهللنا بما فعل المبطلون^(١) .

ويقول جل جلاله : ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم ؟ (٢)

(١) سورة الأعراف ١٧٢/٧

(٢) سورة يس ٦٠/٣٦ ، ٦١

فمن نسي عهد ربه بعد أن ذكرت به الأنبياء ، وجاءت به الرسل فقد هلك ، والقرآن يعبر عن هذا الهلاك بأنه : « خر من السماء .. » وإنه لمشهد مربع لإنسان يخرويهوى من السماء : « ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى .. (١) »

وليت الأمر اقتصر عند هوى هذا البأس من سماه الأيمان إنما بمجرد أن سقط تخطفته طيور الشهوات والأطماع فأصبح وأمس موزع القلب ، مشتت الفؤاد ، مضطرب النفس مشدوداً من كل جوانبه ، ممزقاً من كل أوصاله ، يقول سبحانه : ضرب الله مثلاً رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلاً مسلماً لرجل هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون . (٢)

وبمجرد أن خر من السماء أخذته عواصف الريح إلى مكان سحيق ، وأخذته الشياطين بعيداً عن السعادة ، الأمان ، وفي تعبير القرآن : « تهوى به الريح » ما يدل على عنف هذه الريح وتحكمها في المشرك وأنه لا يجد منها فراراً ، وحين قال : « في مكان سحيق » أدركنا ما يعانیه الكافر من ضيق المكان وبعده وما هو فيه من غربة ووحشة وآلام .

فلتشكر أيها المسلم ربك ومولائك على نعمة الإيمان والإسلام ، ولتعلم أنك رفيع القدر على الدرجة بهذا الإيمان وذلك الإسلام ، وأنظر إلى كل كافر لترى صدق قول الله تعالى .. هذه المجتمعات التي تنكرت لله .. إلام صار حالها ؟؟ فيها من ألوان المتاع الحسي ما لا يخاطر به أحد ، تعب من الشهوات فلا يزيد إلا سعيراً ونهما ، المال والنساء والخمر والفجور والتحلل من كل المبادئ السامية والانطلاق المجنون في عالم الحيوانية ، كل ذلك ميسر كالماء والهواء ، لكن حوادث الانتحار أكثر من أن تحصى ، والسر هو أن نسور الشهوات وصقورها قد توزعت منهم القلوب ، وشياطين الانس والجن قد ألفت بهم في مكان ضيق بعيداً عن واقع الحياة ، فحوصروا في نفوسهم ولم تمتد أعينهم لما وراء الحس .

(١) سورة طه ٨١/٢٠

(٢) سورة الزمر ٣٩

والمتعة ، وكل عالمهم وكل مطلبهم والحس والمتاع هو هذا المكان السحيق الذي أهوت بهم الشياطين فيه .. بما يخيم عليه من ظلمة ووحشة وضياح ، ولهذا يعبر القرآن عن الايمان بأنه نور ، وعن الكفر بأنه ظلام فيقول سبحانه . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . (١)

أرأيت ما أنت فيه من نور؟؟ أحذر - إذن - أن تظنيء منك الشياطين نور الله وأعتصم بحبل الله ، وجدد إيمانك مع الطائفين والعاكفين والركع السجود .

وتأ كيدا لمنهج الله في التزام جانب التوحيد يقول سبحانه : ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق .. فما هي شعائر الله : وما معنى تعظيمها ؟ وما بواعث هذا التعظيم ؟ وما هي المنافع التي لنا في شعائر الله إلى أجل غير مسمى : وماذا يعنى قوله سبحانه : ثم محلها إلى البيت العتيق : وما صفة هذا كله بأمر التوحيد ؟

أما شعائر الله فهي البدن التي تهدي لبيت الله ، والشعائر : العلامات ، وإنما سميت البدن بذلك لأنها من معالم الحج ، وعلامة على طاعة الله تعالى وهداياته ، وهي شعائر لأنها تشع ، أى تعلم بأن تدى بشعره أى جديدة يشعر بها ، وتعظيم شعائر الله أن تختار من أجود الأنواع وأحسنها وأغلاها ثمناً ، يروى أنه بيعت أهدي مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل في أنفه برة من ذهب ، وعن عمر أنه أهدي نعيمه طلبت منه بثلاثة دينار ، وقد سأل النبي ﷺ أن يبيعه ويشترى بشمها بدنا فنهاه عن ذلك وقال : بل أهدها ..

ولم لا تختار وتنقى ؟ ولم لا يبذل فيها المال وهي شيء يقدم لله ؟ وكيف بك إذا أردت أن تقدم هدية لعظيم من عظماء القوم ؟ ألا تدبر الفكر أياماً وليالي وتذهب هنا وهناك باحثاً عن هدية تتناسب مع مقام هذا العظيم ؟ كيف إذن وأنت تقدم هديتك إلى رب كل عظيم وخالق هذا الوجود ورازقه :

(١) سورة البقرة ٢٥٧

وهذا الشعور بتعظيم شعائر الله : من تقوى القلوب .. وتقوى القلوب هي الاحساس الصادق التابع من القلب وهي الشعور بالخوف مع الحب ، والرغبة مع الأمان في كنف الله وما اتصف به من صفات الجلال والكمال .

وتقوى القلوب غير مجرد تقوى الأعضاء تلك التي يتصف بها أهل النفاق فتخشع أعضاؤهم ويبدون في صورة النساك العباد ، ولكن قلوبهم غافلة عن الله أعاننا الله من النفاق وما يدعو إليه ، وحب إلينا الايمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان وجعلنا ربنا من الراشدين .

ومع هذا التعظيم الذي هو من علامات المتقين لربهم الخائفين من إلههم ومليكيهم فإن في البدن منافع جمة . ولذلك قال تعالى : « لكم فيها منافع إلى أجل مسمى » وتلك المنافع هي درها ونسلها وصوفها وركوب ظهرها .

قال عطاء : منافع الهدايا بعد إيجابها وسوقها هدياً أن تركب ويشرب لبنها عند الحاجة « إلى أجل مسمى » وهو وقت أن تنكر ، وإلي هذا ذهب الشافعي .

وإذا كانت هذه منافع خاصة للمهدى فهناك المنفعة العظمى التي تعود على المهدي وعلى الفقراء وتعم المجتمع المسلم ، وتعطي مثلاً للطاعة والولاء لله .. وذلك قوله تعالى : « ثم محلها إلى البيت العتيق » . فإذا ما وصلت إلى رحاب البيت المبارك ، وحلت في الأماكن الطاهرة وجب نحرها .

وفي حديث جابر عن النبي ﷺ : نحرت ههنا ومنى كلها منحرة فانحروا في رحالكم (١) .

وفي حديثه أيضاً عن النبي ﷺ : كل فجاج مكة طريق ومنحرة (٢) .

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه الحاكم .

وإذا كانت تقوى القلب هي التي حركت فيك شوقاً وحنيناً إلى بيت الله ودفعتك لتحمل المشاق ومفارقة الأهل والمال والولد فليكن أن تحتفظ بهذه التقوى فهي النهر العذب الذي تفرغ منه كلما لتفك هجير الحياة .

وإذا كان تعظيم شعائر الله هو الذي جعلك تدقق في اختيار ما أهديته لله وأنت قادم لزيارته في بيته فكافئك تكريماً وتشريفاً ورفعة ومنزلة ، فهذا التعظيم يجب أن يمتد ما أمتدت بك الأيام يجب أن تقف عند كل ما شرع ربك معظماً لأمره خائفاً من معصيته لا تستهين بصغيرة من الصغائر فإن الإصرار على الصغائر يجعلها كبائر .

وإذا كنت قد وقتت مواقف الضراعة والابانة والطاعة فتطهرت من كل ذنب فهل تسمى تلك المواقف التي عظمت فيها أمر ربك ووقفت فيها بين يديه تائباً عابداً ؟ هل تسمى لحظات مشرقة بالدعاء عامرة بالرضا ، سكبت فيها العبرات ففصلت أوراق النفس وصدأ القلب فعادت نفسك نقية طاهرة وأشرق نور الله في قلبك فأحسست بالسعادة والأمان .

إنها تقوى القلوب تلك التي تحتاج إلى دوام الممارسة العملية لتعظيم حرمات الله وشعائر الله ، وهذه الممارسة تبقى لك نقاء التوحيد ومعين الإخلاص سالماً من كل شائبة فتنتج مع التاجين ، وتوزع مع الفائزين .

الفصل الخامس

الذبح باسم الله

(أ) طريق الإنسانية الصحيح

(ب) صلته بدعوة التوحيد

(ج) المخبتون وصفاتهم

قال تعالى : « ولكل أمة جعلنا منسكاً ليزكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فلهكم إله واحد ، فله أسلموا ، وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمي الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون » .
(سورة الحج ٢٢/٣٤ ، ٣٥)

(أ) الاسلام دين أصيل ، باسق التروع تمتد الجذور ، هكذا يشعر أهل الايمان ، وهم يرون أجيال الإنسانية تتوارد على تبيع واحد هو تبيع الايمان الطاهر وما يفيض به من كريم المبادئ ورفيع المعاني ومن حكمة الله أن شرع للمؤمنين على امتداد التاريخ الانساني من المناسك ما يحوي في قلوبهم دائماً بواعت الايمان ، وما يشعل في وجدانهم نوره الذي يرون به الحياة في وجهها المشرق المضيء .. لقد وضع لهم في الطريق صور وعلامات حتى لا يضل منهم أحد ولا يتحرف عن طريق مولاه .

قال تعالى : « ولكل أمة جعلنا منسكاً ليزكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » والمنسك هنا كما قال مجاهد : هو الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى .

(ب) فكل أمة شرع الله لها منسكاً خاصاً بها ، وما ذلك إلا ليزكروا

اسم الله على ما يدعون . فيكون توحيد الله هو المطلب والمقصد من إراقة الدماء ، ويكون الذبح وسيلة لإعلان الطاعة لله وحده إذ كيف يشركون به غيره وهو الذي يرزقهم ما يدعون ، والمشركون لو سئلوا : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ؟ فيقولون الله ، فقل أفلا تتفنون » (١) .

فالمقصد من إراقة الدماء هو كما قال سبحانه : « ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » أنها تربية عملية على توحيد الله سارت عبر القرون والأمم ، وما زال كل رسول يوصي أمته بالترام جانب التوحيد إلى أن ختمت الرسالات بمحمد ﷺ ، قال تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (٢) .
وقال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (٣) .

وإذا كان الله هو المعبود بحق ، فإن الفناء مقاليد الأمور إليه وحده هو طريق الإنسانية الصحيح ولذلك قال سبحانه : « فله أسأموا » .

والعبادة ذات دلالة خاصة ، فانها تدفع القلب دون توان أو تراجع إلى التسليم المطلق لله ، وتجعل هذا التسليم أمراً خاصاً بذاته ، وتطلق ما يجب أن يسلم فيه المرء لله ليق شاملاً لكل حركات الانسان وسكناته وأقواله وأفعاله . وحياته بل ومماته . ومقتضى هذا التسليم أن تجعل هوائك تبعاً لما يحب الله ورسوله ، وأن تحمكه في كل ما ترى من حولك . فالحياة كلها يجب أن تحكم بحكم الله ، وإلا فلا إيمان ولا إسلام إنما هو التحاكم إلى الطاغوت :

(١) سورة يونس ١٠/٣١ .

(٢) سورة فاطر ٣٥/٢٤ .

(٣) سورة الأنبياء ٢١/١٠ .

قال تعالى : ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » إلى أن قال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك في شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسأموا تسامياً (١) »

والاسلام جهاز متكامل لا يقبل التزقيع ولا يرضى باستبدال شيء منه بسواه فان ما سواه صناعة بشرية أما هو فصناعة ربانية إلهية ، وما تعانته مجتمعات الاسلام اليوم انما هو نتيجة مباشرة لهذا التزقيع . ترى في كثير منها خليطاً عجيباً من قوانين الشرق والغرب وبقايا من شريعة الاسلام في فرائض العبادات وقوانين الأحوال الشخصية حتى فرائض العبادات فهمت خطأ ، فقد اعتقد البعض أنها من الأمور الشخصية ، فلا يعاقب أحد على تركها أو إنكارها . ولهذا ترى من يجاهر بالإلحاد وترك الصلاة وإفطار رمضان . وترى أن الزكاة ركن لا يقيمه إلا أصحاب النفوس الطيبة الطاهرة . لكن لا حرج على من أنكره أو نخل بما عنده . هكذا فهمت أهم تعاليمها تدين بالاسلام (٢) .

وإذا كنت في منى ترجم الشيطان وتؤكد يوماً بعد يوم مدى كراهيتك لإبليس وجنده فأعلم أن جند إبليس في أنحاء الأرض . فاذا عدت لديارك فواظب على رجم جنود الشيطان . واجهدهم ليسلك دينك ولتتقذ اخوانك المستضعفين . . واجهدهم إلى أن يرتفع صوت الحق ويعود الإسلام شريعة تحكم الحياة بالحب والعدل والسلام . واجهدهم فالفئنة قد خرقتها الظالمون ، ولا بد أن تصل إلى المرفأ الآمن الرحيم ، فهذا هو ما يريد الله من قوله : « فله أسأموا . » انه يريد لنا أن نتحرر من كل رق وأن نتخلص من عبودية العباد إلى عبوديته وحده ، فاحذر أن تعطى زمامك لغير الله : « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هانا الله كالذي

(١) سورة النساء ٤ ، ٦٠ ، ٦٥

(٢) انظر النقرة الثالثة : ما فيه من المنافع ص ٤١

استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى أتنا ، قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين . . (١)

« قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم ، دينا قبيحاً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . . (٢)

بهذا ، أمرنا رسولنا ﷺ ، فقل لكل مشرك وملحد ماء الله لهذا الرسول الكريم واعلم أن التزام الإسلام الوجه لله ودوام الإخلاص له يحتاج إلى الجهاد المتواصل ، والنجاح في هذا السبيل هو النجاح الحقيقي والفوز الأعظم ، والقرآن حين يوجه الناس إلى التسليم لرب العالمين لا يدعهم دون أن يرشدهم إلى الوسائل التي يصلون بها إلى هذا الهدف النبيل ، وهو يستعمل الترغيب والترهيب ليحاصر النفس البشرية من كل جوانبها فلا تجد مفرأ من التسليم له رحمة منه وفضلاً ولهذا يقول : وبشر المحبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمي الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون .

فمن شهد شهادة التوحيد ، من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأدى ما عليه من واجبات الإيمان والإسلام ، ومن أسلم لربه في كل جزء من حياته يستحق البشرية من الله . وبشر المحبتين . .

(ج) والمحبتون : هم المطمئنون ، أو المتواضعون ، أو هم الراضون بقضاء الله تعالى ، أو هم المجتهدون في العبادة . وكل هذا مأخوذ من أصل كلمة « الخبت » فإن معناها في اللغة : المطمئن من الأرض ، فكان الخبت هو الذي اطمان قلبه وتواضع لمولاه ، ورضي بقضاء الله . فبذل كل طاقته في عبادة ربه ورأى أن هذه الحياة مربية خاضعة للرب الخالق ، وهو جزء من هذا الوجود ، تسيره بهذا الرب الخالق ، فإن توقف قلبه عن نبض الطاعة ، وان شذ عن سنن

الوجود أصبح نغماً نشازاً وسط لحن الحياة الرتيب ، ولهذا تلمح ما تعانیه المجتمعات التي انحرفت عن هدى الله ، ولم تخشع في محراب شريعته ودينه ، ورفضت دين الله كله . أو لبست توباً مضحكاً فيه عدة رقع . كل رقعة منها لون من الألوان . وانظر مرة أخرى لقوله : وبشر . واسأل : من المأمور بذلك ؟ ومن الذي يحمل لك البشري ؟ فأى شرف بعد هذا الشرف . وأى تكريم بعد هذا التكريم .

إن كل عاقل ليجن إلى أن يبشر بهذه البشري وأن يفوز هذا الفوز العظيم لكن هذا الخين لا يمكن إلا ما لا بد من الاتصاف بصفات الخبتين وهي كما قال سبحانه : الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . والصابرين على ما أصابهم . والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون .

صفات الخبيثين

فأول خطوة على طريقهم هي الخوف من الله . . والخوف من الله لا يأتي إلا بإدراك قيمة من تخاف منه وما له من صفات الجلال والكمال . وهذا الإدراك لا يأتي إلا بالذكر الدائم . واليقظة المستمرة حتى تصفو النفوس من الأكدار ويظهر القلب من الأوزار . فهو دائم الوجيل والخوف الشديد من الله . كلما سمع اسمه أو صفته خشع وخضع . كيفما كان الذاكر . ولعل هذا بعض ما يفهم من عدم التصريح بالذكر في قوله تعالى إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . . (١)

وفي قوله سبحانه : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ، مثاني ، تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » (١) .

والخوف لا يأتي إلا بخير ، والقلب الذي استقرت فيه خشية الله لا يسبح منه إلا للتور .

لهذا كانت الصفة الثانية من صفات الخبيثين : « والصابرين على ما أصابهم » .

ولتوقف قليلا عندهذه الصفة ولماذا أتت بعد الخوف من الله ، فإن الخوف لا يعضي الضعف والمذلة والمسكنة بل العكس هو الصحيح ، فإن الخائف من الله لا يخاف سواه ، ومن هنا لا يؤثر فيه ضغط اجتماعي فاسد ، ولا عنف ظالم ، ولا يترزحه عن طريق مولاه جيروت طاغية ، إن الخائف من الله قوة لا ترزله العواصف ، وثبات لا تؤثر فيه الرياح الموجهة ، والخائف يتعرض لألوان من الابتلاء وصنوف من المحنة في نفسه وماله وولده وخلقه ودينه ، ولكنه مطمئن لأمر الله ، صابر على ما يصيبه في سبيل ربه ، ومن هذا الصبر صبره على ما يصيبه في دنياه ، لأنه لا يملك الاعتراض على قضاء الله .. إنه صابر على ما ينزل به من بلاء في نفسه وماله وولده . قال تعالى : « ولتبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والترات وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (١) .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الصبر في باين : الصبر لله بما أحب وإن قبل على الأنفس والأبدان . والصبر لله عما كره ، وإن نازعت إليه الأهواء ، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله .

وقال علي بن الحسين : زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عتق من الناس فتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين يا بني آدم ؟ فيقولون : إلى الجنة .. فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم ، قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا على معصية الله حتى توفانا الله . قالوا : أنتم كما قاتم ، أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

وفي هذا قول الحق سبحانه : « إنا يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (١) .

والرسول عليه السلام يتعجب من المؤمن فيقول : عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له (٢) .

أما الصفة الثالثة للخبيثين فهي : « والمقيمي الصلاة » . وإقامة الصلاة كما سبق أن أوضحنا في دعاء إبراهيم عليه السلام وهو يقول : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة » .

وقد عرفت أن إقامة الصلاة لا يتم بمجرد أدائها في أوقاتها وأدائها على ما أراد الله من الطهارة والخشوع ، ومالها من آداب وأحكام . فهذا بعض معاني الإقامة ، إنما إقامتها معناها : رفع شعارها في كل مكان ، وأن تكون طريق حياة للبشر ، معناها أن تكون سمة من سمات المجتمع المسلم ، وعلاقة بارزة مميزة لحياته ، ولهذا كان أول عمل لأهل الإيمان إذا مكن الله لهم في الأرض إقامة الصلاة : الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة . وفي إقامة الصلاة ، ذكر الله وربط للانسان بخالقه ، كما أن الجهاد في سبيل اقرارها يحتاج إلى الصبر ، صبر على أدائها ، وصبر على مشقات الدعوة وما يتحملة الدعاة إلى الله والمجاهدون في سبيل الله من آلام وبلاء .

أما الصفة الرابعة فهي قوله سبحانه : « ومما رزقناهم ينفقون » فالإنفاق في وجوه الخير دينهم ، وبذل المال طبيعتهم المتجددة مع كل أنه ألم ودععة بائس ، ولوعة مسكين ، ومسغبة يقيم ، وهم حين ينفقون يحسون أن ما بين أيديهم فضل من الله إن شاء أخذه وإن شاء أبقاه : « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ..

وهو سبحانه لم يكنهم شططا ، إنما طلب إتفاق بعض ما أعطاهم ،
والمتجبنون هم أصحاب القلوب العامرة بالحب للناس والاحساس بمحاجة الضعفاء
لهذا كان من أوصافهم الإتفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله ، وهذه الصفات
الأربع يكمل لهؤلاء المتجبتين ما تمنى الإنسانية من معاني الرفعة والكرامة والعزة
والقوة والرحمة والمحبة والإخاء .

وهذه هي صفات حجاج بيت الله الحرام . فإذا ما أدت نسكك ولبيت
تداء ربك وشهدت أن إلهك إله واحد ، وأسلمت له كل أمرك كنت جديراً
أن تبشر بالخير كله لأنك من المتجبتين ، لقد شفت روحك وتطهر حسك وشعورك
وعشت مواطن الذكريات الغالية ، وامتلاء قلبك حباً وطاعة لخالقك وصبرت
على فراق الأهل والولد ، وتحملت مشقات السفر ، وصبرت على ما وجدت من
صعاب في أداء المناسك ، وتجمعت مع اخوانك المؤمنين حول بيت الله لتقيموا
الصلاة فأديتها كما أمر الله ، وأتقت من مالك الكثير فأبشر بالخير العميم والجزاء
العظيم ..

الفصل السادس

البدن

(أ) كيفية ذبحها .

(ب) ما في الذبيحة من حقوق .

(ج) التقوى هي المطلب الحقيقي من إراقة الدماء .

قال تعالى : والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم
الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك
سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله
التقوى منكم . كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم . وبشر المحسنين
[الحج ٣٢ ٣٦]

(أ) مازال الحق تبارك وتعالى يرسي دعائم التوحيد ويرسم للبشرية خطاً
مستقيماً لئلا تضل الطريق . فبعد أن بين كيف تعظم شعائره . وإلى من تهدي
هذه الشعائر . وبعد أن بين ما كانت عليه الأمم في أمر النسك ، ودعا إلى
التوحيد وإسلام الأمر له وحده وبعد أن بين صفات المتجبتين قال : « والبدن
جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير . فاذكروا اسم الله عليها صواف
فإذا وجت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » .

فان البدن مما ينتفون . « والبدن : جمع بدنة وهي الناقة أو البقرة تنحر
مبكرة . وسميت بذلك لعظم بدنها لأنهم كانوا يسمونها ثم يهدونها . ومعنى
أنها من شعائر الله : أي جعلها الله علماً على طاعته وعنواناً لمحبة العبد لخالقه ؟
ولم لا تكون عنوان المحبة وهي إنما تهدي لبیت الحبيب ؟ ولم لا تكون علماً
على الطاعة وهي قد حملت طابع الإخلاص وأشعرت لتكون دليل التقربى إلى

الله . ومع أن الله جعلها لنا من أعلام دينه . فلن نحرم الخير العاجل كما لم نحرم الخير الأجل « لكم فيها خير » أي خير كثير عظيم . من الانتفاع بابنها ونسلها وصرافها وركوبها . وهذه هي طريقة ذبحها : « فاذكروا اسم الله عليها صواف » ومعنى صواف : أي قائمات قد صغفن أي يدين وأرجلهن فأبدتة عند ذبحها تعقل إحدى يديها ثم تقوم على ثلاث . وعقلها عند النحر سنة فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنه وهو ينحرها . فقال : ابعثها قياما مقيدة سنة محمد ﷺ .

والأكثر على عقل اليد اليسرى . وقيل لافرق بين عقل اليسرى وعقل اليمنى . فقد أخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال : اعقل أي البدن شئت . والهدف من نحرها هو ذكر اسم الله عليها .

وإنه لأمر يستدعي منا التأمل والنظر . فهذا كله من أجل ذكر اسم الله على ما يذبح ؟ يكرره القرآن ويؤكد به ويدبر فيه الحديث مرة ومرات . فما بالنا والحياة كلها تسير بعيدة عن الله ؟ وكيف وشريعة الله تحارب في كل مكان ؟ وكيف وأحكام القرآن معطلة في أنحاء الأرض . مما يدع إلى الرثاء والاشفاق ويتطلب منك بذل الجهد والتضحية بالعالى والتفكير حتى يرتفع اسم الله على كل ما ترى .

(ب) إن إراقة الدماء مع ذكر اسم الله عليها تدريب عملي على طاعة الله وتوفيق الأمر له . فاذا ذبحت ذبيحتك قائمة معقوله وقلت باسم الله أكبر اللهم منك وإليك . ووجبت منها الجنوب وسقطت على الأرض . فلا تنس للفقراء : فكفوا منها وأطعموا القانع والمعتر ..

(ح) وأعلم أن البدن « ناقة أو بقرة » تكفي عن سبعة (وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه : كنا نبحر البدنة عن سبعة) فقيل : والبقرة ؟ فقال : وهل هي إلا من البدن ؟ أي حكم البقرة حكم الإبل فقد روى أبو داود عن جابر قال : « البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة » والأمر بالأكل منها

فيه مشاركة الأغنياء للفقراء وفيه من مثل الإسلام وقيمة الكثير فيه المساواة والتواضع والمحبة والرضا : وفيه تكافل اجتماعي نابع من نفس طاهرة لا تبغى من أحد جزاء ولا شكورا .

والأمر هنا : للباحة فلو لم يأكل لاشيء عليه . لأن الامتناع عن الأكل ليس كبيراً وترفعاً عن الفقراء إنما زيادة حرص على أن ينتفعوا بالبدنة كلها وزيادة محبة في فعل الخير والإكثار منه في موافق الطاعات والقربات .

والأمر الثاني : وأطعموا القانع والمعتر « والقانع الراضي بما عنده وبما يعطى دون مسألة ولا تعرض لها والمعتر المتعرض للسؤال . قيل القانع : السائل : والمعتر : المتعرض من غير سؤال وإنما سمى السائل قانعاً لأنه يرضى بما يعطيه قل أو كثر ويقبله ولا يردده والجمع المسلم لا يترك من يمنعهم الحياء أن يسألوا الناس شيئاً أو من يدفعهم ضيق ذات أيديهم لمدها بالسؤال دون أن يعمل على سد خللهم وإعطائهم ما يحتاجون : وما تنفقوا من خير فلا تنفسمكم وما تنفقون إلا إيتاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسمهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم (١)

ولعلنا ندرك سر قوله تعالى : « وأطعموا » فانك لو تركت جزءاً أو تركتها كلها للفقراء تكون قد أطعمتهم لكن يبقى لهذا الأمر ظل خاص وكأنه أراد أن يقول : عليكم أن تتأكدوا من وصول هذا لأهل الناقة والمسكنة بأن تطعموهم بأنفسكم وذلك لطيب خاطرهم وربطهم باخوانهم وإشعارهم بعزيمتهم وكرامتهم . فما أعظم هذا الدين وما أكرم هذا الخلق العظيم .

(ج) بقي أمر يسترعى الانتباه في هذه البدن : وذلك انك تراها سهلة القيادة لا تمتنع عن ذبح ولا ترفض أن تعقل أو تليق على جنوبها . وهنا لا بد أن تتساءل : من الذي أسلس لنا قيادها ؟ أليس هو الرب الرحيم أليست هذه نعمة من نعمه العظيمة ؟ ولهذا يشير الكتاب الكريم إلى هذه النعمة بقوله : « كذلك » .

ولاشك أننا ندرك ما أودع الله فيها من قوة لكننا نعطي زمامها لابن صغير ضعيف فتتقاد له طائفة ، فمن الذي ذلها وسخرها لنا ؟ إنه الرب الكريم « كذلك سخرناها لكم » .

فهي في خدمتكم تنتفعون بها وتستعينون بها في تيسير حياتكم . ألا يستحق ذلك الشكر لولي النعمة ، لذا يقول سبحانه : « لعلمكم تشكرون » .

وهذا هو هدف وجودنا في هذه الدنيا ، وذلك هو المقصد من نحر الذبائح لأنها منتهج عملي يوصلنا إلى درجة العبودية الكاملة لله .. « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (١) .

وليست إراقة الدماء أو إطعام الطعام هي الهدف ، إنما الهدف هو إيجاد نوعية إنسانية فريدة تحمل قلوباً رحيمة ونفوساً خيرة ، وأئمة متعلقة بالله فيفيض برها على العالمين .

ولهذا يقول سبحانه : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » .

أي لن تكون اللحوم أو الدماء سبباً لرضوان الله ومحبه لكم من حيث هي لحوم ودماء ، إنما لما يصحبها من ذكر لله وإخلاص له وصدق في النية

والقول والعمل ، وذلك كله نابع من تقوى الله ، فتقواكم وخوفكم من الله وعملكم الدائب من أجل مرضاته هو سبب القبول والرضا والمحبة ، قال مجاهد : أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشریح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيماً لها وتقرباً إليه تعالى فنزلت هذه الآية .

وزيادة في الامتثال ولفنا القلوب والعقول لما في الأنعام من نعم وكيف أن هذه الطاقة القوية التي تحمل الأثقال إلى المسافات الشاسعة تنقاد لنا في يسر وسهولة .. يقول سبحانه : « كذلك سخرها لكم » .

ويؤكد وجوب الشكر ويحدد طريقته وهو يوضح الهدف من إيجاد هذه النعم فيقول : « لتكبروا الله على ما هداكم » ..

أي لتقولوا عند ذبحها « الله أكبر » أو لتحمدوا الله وتشكروه على ما أفاء عليكم من نعمة الإيمان والإسلام ، وما من عليكم من نعمة الهداية الإلهية ..

ولكن العبادة — كما ترى — لا تصل إلى أفقها العالی عباراتنا البشرية القاصرة ، فإن تكبير الله اعتراف مستمر بعظمة الإله الخالق ، وتسليم مطلق لكبريائه ، وهذا التكبير هو سر عزة أهل الإيمان : « والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (١) وهو من هداية الله لنا وتوفيقه لأهل الإسلام ..

وختاماً لهذه الجولة في بيان حقيقة البيت وبانيه ، وتفاهة الشرك والمشركين وأثر مناسك الحج في حياة الفرد والجماعة ، وما في الهدى من اراقة للدماء والهدف من ذلك ، يختم هذه الجولة بقوله : « وبشر المحسنين » .

وإذا كان المسلم يحتاج إلى أن يحسن في كل قول وعمل فإنه — وهو

يؤدي مناسب الحج — يجيا في ضيافته الرحمن ؛ في بيت ربه الكريم ؛ ولا بد أن يدقق وأن يتحقق وأن يراقب نفسه وقلبه في كل خطوة يخطوها ؛ وأن يؤدي ما أوجب الله عليه بأزلا كل طاقته ؛ مخلصاً لربه حتى يحوز الرضا ؛ ويحظى بهذه البشرى التي يحملها له رسول الإنسانية محمد عليه السلام . . . وما أعظمها من بشرى ؛ وما أعظم من يحملها صلوات الله وسلامه عليه .

الباب الرابع أحكام ومعايير

الفصل الأول : السعي بين الصفا والمروة .

الفصل الثاني : أضواء على آيات من سورة المائدة .

(أ) تحريم الصيد على المحرم .

(ب) تعظيم شعائر الله .

(ج) صيد الحرم واصطياد المحرم : حكم ذلك وجزاؤه .

(د) الكعبة وتعظيمها .

الفصل الثالث : من أحكام الحج ومعاييره في سورة البقرة .

الفصل الأول

السعي بين الصفا والمروة

قال تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر . فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم . » .
(سورة البقرة ١٥٨/٢)

من لم يعرف سبب نزول هذه الآية الكريمة قد يتوهم أن السعي بين الصفا والمروة غير واجب مع أنه ركن من أركان الحج عند الأئمة الثلاثة وواجب عند أبي حنيفة . . وذلك أن الآية كما ترى تقول : « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

فنفى الجناح والمؤاخذة على من طاف بهما ، فهل من أدى ركناً أو واجباً من أركان الحج وواجباته يقال له : لا جناح عليك في هذا ?? وهل يعنى ذلك أن من لم يفعل لا حرج عليه ولا مؤاخذة ?

إن سبب النزول يحسم هذه القضية . فقد روى الامام أحمد بسنده عن عروة بن الزبير أنه قال لخالته عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها : أرأيت قول الله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

قال عروة : فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما ، فقالت عائشة : بينما قلت يا بن أخي ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت : **فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما** ، ولكنها إنما أنزلت إن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهزلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا :

يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفى والمروة في الجاهلية ، فأَنْزَلَ اللهُ عزوجل : « إن الصفى والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » قالت عائشة : ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما . أخرجاه في الصحيحين .

وروى البخارى بسنده عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنساً عن الصفى والمروة ، قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكتا عنهما فأَنْزَلَ اللهُ عزوجل : « إن الصفى والمروة من شعائر الله » .

وقال الشعبي : كان إساف على الصفى وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونها فتخرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية (١) .

فلا يه إذن ليست دليلاً على وجوب السعى أو ركبتيه، إنما نزلت تنفي حرجاً شعر به أصحاب رسول الله ﷺ في أول عهدهم بالحج ، وقد كانوا في جاهليتهم يرون إساف على الصفى ونائلة على المروة ، فإذا سعوا بين الصفى والمروة استلموا هذين الصنمين ، فلما جاء الإسلام وحطم الأصنام ، وطهر بيت الله الحرام ، وأمر المسلمين بالسعى بين الصفى والمروة ، شعر الكثير منهم بهذا الحرج ، فجاء قوله تعالى : « إن الصفى والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

يبين لهم أن هذا السعى أصبح من جملة شعائر الله ، « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » فالأمر لم يعد أمر الجاهلية إنما أصبح أمر الإسلام وأحكامه وما جعله لأهل الإيمان معلماً من معالم العبودية والطاعة .

والإسلام حين أتى للحياة وجد فيها خليطاً من الحق والباطل ، فنفي هذا الحق وصفاه وأعاد إليه وجهه المشرق المضيء ، ونفي ما عليه من أقدار

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ط دار احياء التراث العربى بيروت (١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩) .

الجاهلية وأوساخها وضلالها وصاغه في مفهوم جديد ، وألبسه ثوب الإيمان ، وربطه بمصدر الحق كله ، وردّه إلى الإله الحق أحكم الحاكمين .

وهكذا كانت شعائر الحج ومناسكها في الجاهلية : اختلط فيها الحق الذي أتى به إبراهيم عليه السلام بالخرافات الجاهلية وثنياتها وإشراكها ، فلم يكن أمام الإسلام إلا أن يضرب الوثنية والانحراف والإشراك ضربات قاضية ليبقى الحق الذي أتت به السماء منهجاً صادقاً للاخذ بيد الإنسان إلى مراتب الكمال الإنساني حين ينفذ هذا الإنسان أوامره في طاعة لا تعرف التردد ، وحب لا يشوبه كره ، وشوق يدفع إلى الامتثال عن رضا واقتناع .

والسعى بين الصفى والمروة شعيرة من شعائر الله ، أداها رسول الله ﷺ في جملة ما أدى من الشعائر حين كان يعلم أصحابه كيف يؤدون هذه الشعائر ويعظمونها وهو يقول : خذوا عني مناسككم .

فكيف كان يسعى صلوات الله وسلامه عليه بين الصفى والمروة ؟

في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفى وهو يقول : « إن الصفى والمروة من شعائر الله » ، ثم قال : « أبدأ بما بدأ الله به » وفي رواية النسائي : ابدأوا بما بدأ الله به .

روى الإمام أحمد بسنده عن صفية بنت شيبة عن حذيفة بنت أبي بجرأة قالت : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفى والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم ، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى . يدور به إزاره وهو يقول : « اسعوا فان الله كتب عليكم السعى » .

وفي قوله ﷺ : « ابدأوا بما بدأ الله به » دلالة على أن ابتداء السعى إنما هو من الصفى فلو ابتدأ من المروة لم يحتسب له شوط ويكون إبداءه الأشواط السبعة إنما هو الصفى ، وفي قوله صلوات الله وسلامه عليه : اسعوا فان الله كتب عليكم السعى ما يشير إلى أن السعى ركن من أركان الحج لأن (٢) (٢٠١ - الحج)

« كتب » معناها فرض كما قال تعالى كتب عليكم القصاص في القتلى ، وكما قال : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام . وهذا ما قال به الأئمة الثلاثة ، وقال أبو حنيفة . إن السعي واجب بمجرد تركه بدم وليس ركناً لا يصح الحج بدونه .

وفي قول جابر : ثم خرج من باب الصفا . إلى آخر مقال : دلالة على أن السعي لا يكون إلا بعد طواف صحيح ، فلو ابتدأ بالسعي قبل الطواف لم يصح سعيه .

والسعي لا يكون إلا للحرم بجمع أو عمرة ، وهو سبعة أشواط بدايتها الصفا ونهايتها المروة . هكذا فعل رسول الله ﷺ وهكذا فعل أصحابه ؟ وعلى هذا إجماع الأمة . لذا لا يجوز له أن ينقص الأشواط السبعة خطوة واحدة وإلا لم يصح سعيه ، وبالتالي لا يتجمل من إحرامه .

وذهب أبو حنيفة إلى القول بأنه لو سعى أربعة أشواط صح سعيه لأنه أتى بأكثره ، ولو سعى أقل من ذلك لم يصح ووجب عليه دم .

هذه واجبات السعي أما سننه فهي : الموالاتة بينه وبين الطواف وأن يستلم الحجر الأسود قبل الذهاب للسعي ، وأن يخرج من باب الصفا تالياً قول الله تعالى : إن الصفا والمروة . الآية . وأن يكون مطهراً وأن يصعد على الصفا والمروة كلما بلغهما بحيث يشاهد الكعبة ، فإذا ماشدها استقبلها فوحد الله وكر ثلاثاً وحده وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت يده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . ثلاث مرات وليدع بدعاء عبد الله بن عمر الخطاب : اللهم إنك قلت : ادعوني استجب لكم » وإنك لا تخلف الميعاد ، وإني أسألك كما هديتني للإسلام ألا تنزع مني حتى تتوفاني وأنا مسلم .

وإبدأ سعيك مكثراً من الذكر والدعاء والضراعة لله فإذا ما وصلت بين

الميلين الأخضرين فأسرع الخطأ ، (وهو ما يعرف بالخيب) وهو خاص بالرجال دون النساء .

وعلى الساعي أن يستحضر في نفسه ذل العبودية وافتقاره لخالقه ، وأن يذكر حال المجاهدين الأوائل عليه أن يذكرها جسر وسعيها بين هذين الجبلين ، وكيف استسلمت لأمر الله ورضيت بالحياة في هذا المكان القفر الموحش لأنيس معها ولا جليس استجابة لوحى الله ، فما تركها ربهما في حيرتها وخوفها وعطشها وعطش وليلتها حتى أرسل لها جبريل يضرب الأرض بجناحه فيخرج لها ماءً عذباً هو طعام طعم ، وشفاء سقم .

ونحن إذا ما تأملنا في قول الله تعالى . إن الصفا والمروة من شعائر الله . سنجد أن الآية تقرر أن الصفا والمروة من شعائر الله لا من شعائر الجاهلية ، فقد انتهى عهد الجاهلية وبطلت شعائرها وهي بهذا التقرير تذهب مافي النفوس من حرج ، وتطمئن القلوب وترغبها في الامتثال وتدعوها إلى الطاعة ، وهي بهذا التقرير — أيضاً — تدعو المؤمنين إلى تعظيم هذه الشعيرة وتدفعهم إلى أدائها على الوجه المطلوب دون تردد أو شك أو توان أو تقصير .

وإذا كانت من شعائر الله فلا بد أن تعظم ، وعلى هذا فما كان يفعله الأنصار في جاهليتهم حين كانوا يهلون لمناة الطاغية فيتخرجون من السعي بين الصفا والمروة ، وماتاله أنس رضي الله عنه من أهم كانوا يرون الصفا والمروة من أمر الجاهلية ، كل هذا لا يمكن له بعد أن أصبح السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما .

والحج : قصد مكة لأداء عبادة الطواف بالكعبة ، والسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة ، وسائر المناسك محرماً بنيه الحج .

والعمرة : مأخوذة من الإعتار وهو الزيارة ، والمقصود بها : قصد مكة لزيارة البيت والطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ، والحلق أو التقصير .

والسعي ركن من أركان الحج والعمرة : فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بالصفة والمروة ، وقد عرفنا سر قوله : فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، والجناح من الجنوح وهو الميل ، فلا يميل أحد على من طاف بهما بلائمة ، ولا يؤاخذ بهما فعل .

وقد فهم أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين ، وروى عن أنس وابن عمر وابن عباس أن السعي مستحب وليس بركن ولا واجب لأن الله يقول في آخر الآية : ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم . والتطوع لا يكون في أي مفروض أو واجب إنما يكون في السنون الذي من قام به حاز الخير ، ومن تركه لا شيء عليه .

ولكن فعل الرسول وقوله يرجح رأى الجمهور الذي رأى أنه ركن من أركان الحج ، ويكون قوله : ومن تطوع خيراً . من باب الترغيب في أداء هذا الركن الجليل ، شأن الله في كل ما شرع ، وما افترض على عباده ، ترى ذلك في جميع فرائض العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج . وتراه في سائر ما أوجبه الله على خلقه في باب الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة والصلوات بين الأفراد والجماعات مما يضيق المقام عن حصره وذكره ما جاء فيه من الترغيب وما أعدده الله من جزيل الثواب لمن التزم به . ولذلك أدى المؤمنون ماوجب عليهم طواعية واختياراً ورغبة فيما عند الله وحبا في أداء تلك الواجبات .

ومن هذا ما تراه في قول رسول الله ﷺ لبلال حينما كانت تحين الصلاة: أرحنا بها يا بلال . وقول الله تعالى في الزكاة المفروضة : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها (١) فساها صدقة مع أنها زكاة مفروضة .

وهكذا سائر العبادات التي من تطوع بها وأداها على وجهها الصحيح كان

ذلك خيراً له في دنياه وأخراه . . وعلى قدر إخلاصه يكون ثوابه ولذلك كان ختام الآية : فإن الله شاكر عليم .

فهو سبحانه يثيب عبده على العمل القليل الأجر الكثير ، عليم علماً محيطاً بهذا الكون وما فيه ومن فيه : يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وهذا الختام للآية يندفع العبد إلى العمل القليل يحدوه الخوف والرجاء . والرغبة والرغبة . لأنه يدرك أنه : إذا تقرب إلى ربه شراً تقرب إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إليه ذراعاً تقرب منه باعاً ، وإذا أتاه بمشي أتاه هرولة . . (١)

ومن الذي يعرف نية العبد في قربه من ربه سوى الإله العظيم والرب العليم؟ ومن الذي يرى صدق المؤمن في تعظيمه لشعائر الله ومنها سعيه بين الصفا والمروة ، سوى الإله المطلع على السرائر . من يعلم السر وأخفى . . فسبحانه من إله عليم .

« كما سئله في النداءات الثلاث القادمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » . « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد » . « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » .

ولذلك يروى أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال : إعهد إلى فقال : إذا سمعت الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا » فارعها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه (١) .

فلايمان قاعدة كل أمر ونهى ، ومنطلق كل ما جاء من تشريعات أحسنت شأن الحياة وأعادته إلى مجراه الصحيح ..

فلنتظر في تلك النداءات الأربع لتستمع إلى ما بعدها من أوامر ونواه ما دمتا نتحدث عن الحج في القرآن الكريم ..

وأولها هو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم . إن الله يحكم ما يريد » :

فماذا في هذه الآية ??

« حكي النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم اعمل مثل بعضه ، فاجتنب أياماً كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليلاً عاماً ، ثم استثنى بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا » (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣

الفصل الثاني

أضواء على آيات من سورة المائدة

(١) تحريم الصيد على المحرم

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم ما يريد » [المائدة ١/٥]

في هذا النداء وما بعده من النداءات التي تتناولها بالدراسات أحكام تتعلق بالبيت الحرام وما جعله الله فيه من الأمان الذي شمل الإنسان والطيور والحيوان وفي الآيات التي نستعرضها كثير من معايير الإسلام ومبادئه الرفيعة وقيمه العالية ..

والقرآن لا يسوق من ذلك كله أوامر جافة وكلمات جوفاء : شأن قوانين البشر وأحكامهم ، ولكن هذا هو القرآن ، وتلك هي طريقته : بأسر القلوب ويستولى على المشاعر ويربط كل حكم فيه بأصله الثابت وأساسه المتين ، يربطه برباط الإيمان ، ويشده بوثاق الخوف من الله ، وما في اليوم الآخر من نعم وجسيم وثواب وعقاب ..

ولهذا نلج في بداية هذه الآية النداء بوصف الإيمان : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » .

فهذا النداء الذي يستجيش مشاعر الإيمان في النفس المؤمنة يتبعه أمر بالوفاء بالعقود ، والعقود هي : اليهود ، وكم للإنسان من عهود : عهده مع الله ، وعهده مع الناس . قال زيد بن أسلم : أوفوا بالعقود ، قال هي ستة : عهد الله ، وعقد الخلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد التيمين (١) .

لكن بشرط أن توافق هذه العهود كتاب الله وسنة رسوله ، فكل عقد ليس في كتاب الله فهو رد ، وعهد الله : أهمها جميعاً وأساسها جميعاً ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الوفاء بالعقود إنها : ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله .. لا تغدروا ولا تنكثوا (٢) .

وقال الضحاك : إنها ما أحل وحرم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام (٣) .

ولهذا ذكر بعد هذا الأمر لونا مما أحل ، واستثنى منه ما حرم فقال : أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم .

وبهيمة الأنعام هي : الإبل والبقر والغنم ، سميت بذلك لما في مشيتها من النعومة واللين ، وقد عرفنا — فيما سبق — كيف جعل الله بهيمة الأنعام مظهراً من مظاهر إناعامه على عباده ، وكيف جعل ذبجها باسمه مظهراً لهيئته ، وإعلاناً من الخلق عن طاعتهم للاله الخالق الرازق .

ولكن هذا التحليل ليس على إطلاقه فقد استثنى منه ما حرمه ، وهو ما يعبر عنه قوله : « إلا ما يتلى عليكم » .

(١) فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٤ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣ .

وقد تلا هذا على المؤمنين حيث قال : « قل لا أجد فياً أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوخاً أو لحم خنزير ، فإنه رجس ، أو فسقاً أهل لغير الله به ، فن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم (١) » .

وحيث قال : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم (٢) » .

وسيتلو عليهم هذه المحرمات في الآية الثالثة من السورة حيث يقول : حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ، ذلك فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشروهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ، فن اضطر في مخصصة غير متجانف لإثم ، فإن الله غفور رحيم .. »

وإذا كان قوله أحل لنا هذا وحرم علينا ذلك ، فضلاً منه وكرماً ورحمة ، فقد حرم على المحرم بالبح أو العمره ، أو بهما معاً صيد البر فقال : غير محلي الصيد وأتم حرم (٣) .

يقول ابن كثير في معنى ذلك : « المراد أحلنا لكم الأنعام إلا ما استثنى منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام .. (٤) أي محرم .

وهو سبحانه حين يأمر أو ينهى ، وحين يحل أو يحرم فهذا شأنه وحده لا معقب لحكمه ولا راد لأمره ، ولهذا كان ختام الآية : « إن الله يحكم ما يريد » .

(١) سورة الأنعام ٤٥/٦

(٢) سورة البقرة ١٧٣/٢ .

(٣) سنهرف تنصيرل ذلك في الآيات التالية .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤ .

وقبل أن نعرف ما في الآية لا بد أن نقف عند بعض ما في هذه الآية من الأسرار والأنوار . . فماذا نرى فيها ؟؟

نرى أنه سبحانه يعبر عن اليهود بالعقود : جمع عقد ، وكلمة العقد توحى بالرباط الحسي ، فإذا استعمل في الربط المعنوي دل على شدة إحكامه ووثاقته رباطه ، ونرى أنه قد بين لنا جانباً من اليهود التي يجب الوفاء بها حيث قال : أحلت لكم بهيمة الأنعام . . وهذا الجانب هو جانب الإلتزام بما أحل وحرّم، والمحل هو الله عز وجل ، صاحب الفضل كله و « لكم » تشعر بهذا التفضل الإلهي ، أي أحلها من أجلكم ، « وبهيمة الأنعام » تشمل الأزواج الثمانية المذكورة في قوله تعالى : ثمانية أزواج من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين « وفي قوله : من الإبل اثنين ومن البقر اثنين . . (١)

هذا كله حلال لكم إلا ما سئلت عليكم في قوله في الآية الثالثة من هذه السورة : « حرمت عليكم الميتة . . الآية . . » أو ما تلا عليكم في قوله في سورة النحل : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فإن الله غفور رحيم . . (٢)

وفي سورة الأنعام : « قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه . الآية .

وفي سورة البقرة : إنما حرم عليكم الميتة . . الآية . .

ويأتى قوله : « غير محلي الصيد وأنتم حرم . . » بقر حرمه الاصطياد على المحرم في أبلغ عبارة ، وكأنه قال للمحرمين : لا تحلوا ما حرمت عليكم بعد أن أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا تلك الأنواع التي لو أكلتم منها لكان فيها عليكم الضرر الجسيم والخطر العظيم . .

(١) سورة الأنعام ٦ ١٤٤١٤٣

(٢) سورة النحل ١٦/١١٥

وفي قوله في ختام الآية : « إن الله يحكم ما يريد . . » نلح الجملة الإسمية المؤكدة « بأن » وهي تدل على ثبوت هذا الوصف ودوامه لله رب العالمين . .

وفي الإخبار عن الله بأنه « يحكم ما يريد » دلالة على أن ما في الوجود كله لا يخرج عن حكم الله وأمره ولا يشتر عن إرادته لأنه « فعال لما يريد » فالحياة كلها محكومة بحكمه مسيرة بمشيئته . .

(ب) تعظيم شعائر الله

قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا تحملوا شعائر الله . ولا الشهر الحرام والهدى . ولا القلائد . ولا آمين البيت الحرام يتبعون فضلاً من ربهم ورضواناً . وإذا حللتم فاصطادوا . ولا يحرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى . ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله . إن الله شديد العقاب » (المائدة ٢/٥)

هذا هو النداء الثاني ، وفيه ينادى الله المؤمنين ليبين لهم ما نراه في الآية من توجيهات ربانية ومبادئ سماوية . وفي بدايه ذلك تلك الأمور الخمس التي لا يجوز لهم أن يحلوا . . . فما المقصود من نهى المؤمنين عن الاعتداء على تلك الأمور الخمس ؟ ؟

يبدو من السياق ومن الآثار الواردة في الآية أن هذا النهى للمؤمنين مقصود به عدم الاعتداء على تلك المحرمات حتى لو كان الملتزم بها أهل الشرك وأهل الضلال ، فقد كان العرب في جاهليتهم يعظمون البيت ومشاعره ، مع ما شاب هذا التعظيم من عبادة الأصنام وكثير من تفاهات الجاهلية وضياعها واعتقاداتها الخاطئة : « فقد ذكر عكرمة والسدي وابن جرير أن هذه الآية نزلت في الحطم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه في طريقه فأنزل الله عز وجل ولا آمين البيت الحرام يتبعون فضلاً من ربهم ورضواناً » (١) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحدبية

(١) ابن كثير ج ٢ ص ٥٥ .

وأصحابه حين صدم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم : فمرهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم فأنزل الله : « ولا يحرمكم » الآية (١) .

لكن هل بقي هذا النهى للمؤمنين قائماً أو نسخ بما نزل بعد من آيات تطالب المسلمين بقتال المشركين ومنعهم من دخول المسجد الحرام ؟ ؟

ومن هذه الآيات في سورة التوبة قوله تعالى : « فإذا انسلك الشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » (٢)

وقوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون » (٢) . وغير ذلك من الآيات .

يقول ابن كثير : « وقد حكى الامام أبو جعفر الاجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم . وغيرها من شهور السنة . قال : وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم لم يكن ذلك له أماناً من القتل إذا لم يكن تقدم له عقد ذمه من المسلمين أو أمان » (٣) .

وقال ابن كثير أيضاً : قال عبد الرازق حدثنا معمر عن قتادة في قوله : « ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام » قال : منسوخ ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر فلم يعرض له أحد فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد ، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت فأمرُوا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت ، فنسخها قوله : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (٣) .

(١) فتح القدير ج ١ ص ٨ ، وابن كثير ج ٢ ص ٦ .

(٢) سورة التوبة ٥/٩ ، ١٧ ، (٣) ابن كثير ج ٢ ص ٤ .

ومعني ذلك أن هذا الحكم قد نسخ العمل به . « وهذا ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نسخ من هذه السورة آيات : آية القلائد ، وقوله : فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . »

لكن إذا قلنا بأن هذا الحكم قد نسخ بما جاء من آيات في سورة التوبة ، وما ورد من روايات عن بعض السلف فلنا أن تتساءل : هل استحل المؤمنون حرمة مشاعر الله والشهر الحرام والهدى والقلائد ، واعتدوا على آمين البيت الحرام ؟ أو هل يجوز لهم بعد أن نزلت سورة براءة أن يستحلوا شيئاً من ذلك ؟ إن هذا ما لم يحدث ، ولا تعارض بين ما جاء من هذا النهي في سورة المائدة وما ورد من الأمر بقتل المشركين وقتالهم ومنعهم من دخول المسجد الحرام في سورة التوبة .. ولذلك لما سئل الحسن : « هل نسخ من المائدة شيء ؟ قال : لا » (١) .

وإذا كان المسلمون قد شاركوا المشركين في تعظيم البيت وحرماته وشعائره وما يقدم إليه ومن يفد إليه ، فقد كان ذلك في فترة من الزمان بعدها نزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (٢) .

وانطلق على بن أبي طالب رضي الله عنه ليلحق بأبي بكر الصديق رضي الله عنه . في العام التاسع الهجري ليتلو على أهل الموسم من المسلمين والمشركين ما نزل في براءة ، وبلغ أمر رسول الله ﷺ « لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ؛ ومن كان له عند رسول الله عهد ، فعهده إلي مدته » .

وما جاء العام العاشر حتى حج رسول الله ﷺ بالناس . وقد تظهر البيت من الشرك والمشركين ؛ ودخل الناس في دين الله أفواجا .

(١) ابن كثير ج ٢ ص ٥
(٢) سورة التوبة ٩ ٢٨

فحين نزل هذا النهي في سورة المائدة التزم به المسلمون ؛ وما زالوا ملتزمين به بعد أن انتهى الشرك من جزيرة العرب ؛ وأصبح البيت الحرام ومشاعره قاصراً على أهل الايمان بحسب .

وإذا كنا قد عرفنا أنه لا تعارض بين ما هنا وما في سورة براءة . فمن واجبتنا أن نعرف هذه الأمور الخمس التي ورد النهي بها :
والأول منها ما تقرؤه في قوله تعالى : « لا تحلوا شعائر الله » . فما هي شعائر الله ؟؟

قال ابن عباس : شعائر الله : مناسك الحج . وقال مجاهد : الصفا والمروة والهدى والبدن من شعائر الله .. وقيل : هي حرمت الله ؛ وقيل : فرائض الله ..

إذا تأملت معنى في معنى الشعائر لوجدت أنها جمع : شعيرة ، والشعيرة : هي العلامة البارزة على طاعة الله ، فكل ما كان دليلاً وعنواناً على طاعة الله لا يحل لأهل الايمان أن يتشكروا حرمة ، بل الواجب عليهم تعظيمه والقيام بحقه عليهم .

وعلى هذا فكل ما ذكر في معنى « شعائر الله » داخل في هذا المعنى ، وإن كان ما قاله حبر الأمة . ابن عباس أقربها ، نظراً لسياق الآيات وما يرشد إليه من أن هذه الشعائر التي ينهى الله عن انتهاكها إنما هي مناسك الحج .

وثاني تلك النواهي هو . الشهر الحرام . . فما هو الشهر الحرام ؟ هل هو شهر الحج فقط أو المراد به الأشهر الحرام التي جاء بها حديث رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح البخاري عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض : السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم : ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . . ؟؟ الظاهر أن المراد بها هذه الأشهر الأربعة ، ومعنى النهي عن إحلالها ، النهي عن القتال فيها وتعظيم ما حرم الله فيها . .

وقد علمنا أن هذا النهي عن القتال في الأشهر الحرم كان إلى نزول آيات سورة التوبة التي ضربت الشرك في مقتله، وأنت وجوده من جزيرة العرب ولهذا رأيت الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة كما حكاه الإمام أبو جعفر .

والثالث، والرابع من هذه النواهي هو: الهدى والقلائد . والهدى هو ما يهدى إلى بيت الله من ناقه أو بقرة أو شاة . والقلائد: جمع قلادة . وهي ما يوضع في عنق الهدى من نعل وغيره . علامة على أنها خاصة بالبيت الحرام . لكن: ما معنى النهي عن إحلال الهدى والقلائد؟ هل المراد عدم الاعتداء عليها وأخذها غصباً؟ أو المراد ألا يتركوا الإهداء إلى بيت الله الحرام . فإن في الإهداء إليه تعظيماً لشعائر الله: «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . .» وألا يتركوا تقليديها في أعتاقها للتمييز عن غيرها فلا يعتدى عليها أحد وتكون حافظاً لمن يراها أن يفعل كما فعل أصحابها؟ هذا وذلك جائز .

وإذا كانت القلائد هي القلادة التي تعلق في عنق ما يهدى للبيت . فإن في ذكرها هنا بعد الهدى دليلاً على تأكيد حرمة الهدى وتعظيمه .

أما الخامس من هذه الأمور الخمس فهي ما جاء في قوله تعالى: ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً . . .

فما المقصود «بآمين البيت الحرام»؟ هل هم المسلمون أو المشركون؟؟ إن سبب نزول الآية الذي ذكرناه فيما سبق من أن الصحابة أرادوا أن يمنعوا الخطيم بن هند البكرى الذي كان قد أغار على سرح المدينة . ومرو على المدينة معتمراً . فنزلت الآية تنههم عن ذلك . . سبب النزول هذا يبين المقصود بآمين البيت الحرام وأن هؤلاء هم المشركون . . ويؤكد هذا أيضاً أن المسلمين أرادوا أن يصدوا المشركين ويمنعوهم من القدوم للبيت معاملة لهم بالمثل حيث منعوهم في العام السادس من دخول مكة فبعد صلح الحديبية . فنهأهم الله عن هذا وأمرهم ألا يمنعوا من جاء للبيت الحرام .

ويعنى أن المشركين « يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً » أي يطلبون الرزق والارباح في التجارة، والثواب من الله سبحانه، وهذا بحسب اعتقادهم فقد حكى القرآن عنهم قولهم في أصنامهم « ما نعبدكم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى . . »

وقيل هذا في المسلمين، ويعنى « يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً » على هذا واضح، ولكن هذا القول يبعده سبب النزول .

وقيل أن تترك هذه الأمور الخمسة يلزمنا أن نتفق عندها لئلا عظمت القرآن وإعجازه، وكيف نهى عن انتهاك الحرمات:

فقد جاء النداء الثاني عقب النداء الأول، مفصلاً عنه قائماً بذاته مبدوءاً بـ «يا أيها الذين آمنوا» استجابة لشعور الإيمان ومقتضياته مرة أخرى، ودافعاً إلى التزام ما سببته عنه الإله الذي آمن به المؤمنون .

وما نهى عنه: يبدؤه بقوله: «لا تحلوا» . . وهل يجزئ مؤمن أن يحل ما حرم الله؟ إن قوله: «لا تحلوا» يحمل في طياته تهديداً ووعيداً لمن تحدته نفسه أن يعتدى على حرمان الله .

وإذا ما وقفنا عند كل أمر من الأمور الخمسة . ماذا نرى؟ ماذا نرى أن الأول منها: «شعائر الله» . وكلمة «شعائر» من الحرس والإيقاع في حس المؤمن؟ وكلمة لها من دلالات على ما تحمله من العظمة والقداسة والمنزلة السامية إنها مظاهر لله بعبودية؟ وعلامات بارزة على طاعة الإله . ولكن مهما قلنا في معنى كلمة «الشعائر» وأنها المظاهر أو العلامات؛ فسوف تبقى كلمة «الشعائر» في هذا المقام لها مكان مرموق يؤدي دوره في النفس البشرية ويجعلها أقرب إلى استجابة نداء الإله العظيم . فإذا لاحظنا أن الكلمة مضافة إلى لفظ الجلالة «الله» وهو علم على الذات العلية، عرفنا مدى ما في انتهاك حرمة تلك الشعائر من مخاطرة ومزالق .

هذا هو الأمر الأول ، أما الثاني : فهو الشهر الحرام . ولقد عرفنا ما هو الشهر الحرام ؟ وما معنى النهي عن إحلاله ، ولكن وصف الشهر بأنه حرام . هذا ما يسترعى النظر .. فإن الزمان ظرف لما يقع فيه من أحداث ، وتلك الأحداث هي التي توصف بالحل والحرمه ؛ فإذا وصف بها الزمان كان هذا من باب المبالغة : وكان وصف الحدث بالحلال والحرام قد سرى أثره إلى الزمان الذي وقع فيه ، فسمى الشهر بأنه شهر حرام . والثالث من هذه الأمور هو : الهدى : والهدى كما عرفنا هو الإبل والبقر والغنم التي تذبح في الحرم على وجه التقرب لله تعالى . ولكن اختيار كلمة « الهدى » فيها من المعاني الكثير : فهي تدل على أن هذه الأنعام التي تذبح ليست كسائر ما يذبح ، إنها عنوان التقرب إلى الله ، إنها هدية للبيت ، إنها شيء خاص لا يجوز الإعتداء عليه .

ومن ذا الذي يعتدى عليه ؟؟ المؤمنون ؟؟ وأين إذن منزلة البيت من نفوسهم ؟ وأين هي مكانة رب البيت من قلوبهم ؟ إن الإعتداء على هذا الهدى يتنافى مع تلك المنزلة وهذه المكانة .

والرابع : القلائد . وفي اختيار تلك الشارة ما بلغت الأنظار إلى إحترامها وتعظيمها ؛ فتلك القلائد التي وضعت في رقابها دليل على أنها شيء خاص ببيت الله الحرام . ومن حقها المحافظة عليها وعدم التعرض لها بسوء .

أما الأمر الخامس فهو ما قال الله تعالى : « ولا آمين البيت الحرام ، يتغفون فضلاً من ربهم ورضواناً .. » وإذا ما عرفنا أن هؤلاء هم المشركون الذين صدوا المسلمين عن البيت كان علينا أن ننظر كيف عبر القرآن عن هؤلاء المشركين ، وكيف أمر المسلمين بعدم متعهم من زيارة البيت . وهنا سنتبين عظمة هذا الدين وما فيه من المثل الإنسانية والمبادئ التي أسعدت البشرية ، وما زالت كذلك تحمل في طياتها الخير إلى يوم القيامة .. فع أن هؤلاء مشركون قال فيهم : « آمين البيت الحرام » وفي هذا التعبير ما يدل على تمام المقصد وحسن التوجه ، وإخلاص النية في الوصول إلى البيت الحرام ؛ ومع أنهم مشركون قال فيهم

« يتغفون فضلاً من ربهم ورضواناً . » والإيتفاء : طلب مع جهد مبذول وسعى موصول ، ومن يطلبون هذا الرزق ؟ إنهم يطلبونه « من ربهم » : يطلبون من ربهم فضلاً أي رزقاً يأتيهم من تجارتهم في مواسم الحج وغيرها ، ويطلبون منه رضواناً وثواباً .

وقد عرفنا أن المشركين لا ينكرون وجود الله . كما لا ينكرون أنه هو الخالق الرازق . المحيي المميت . قال تعالى : قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار . ومن يخرج الحي من الميت . ويخرج الميت من الحي . ومن يدبر الأمر . فسيقولون الله .. فقل أفلا تتقون . (١)

وكم لكلمة الرضوان هنا من معنى : إنها تمام الرضا . وما يستلزمه ذلك من ضراعة القلب وتعلقه بالله . حتى ينال صاحبه الرضا : والتعبير القرآني : « يتغفون فضلاً من ربهم ورضواناً » فيه دليل تجدد هذا الطلب واستمراره . وكيف أن هذه حالتهم لا يكفون عنها ولا يتوانون فيها .

وبعد أن نهى عن إحلال هذه الأمور الخمسة عاد إلى ما كان قد حرمه على المحرم من قتل الصيد فقال : « وإذا حللتم فاصطادوا . » أي وإذا حللتم من إحرامكم فاصطادوا ما شئتم (٢) .

وتأ كيداً للأمان الذي جعله الله لمن قصد بيته قال : ولا يجزمنكم شئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعبدوا . « أي لا يحملنكم بغضكم لمن صدوكم عن المسجد الحرام على الإعتداء . ومن صدوكم عن المسجد الحرام هم أهل مكة حين وقفوا في وجه الرسول وأصحابه ورفضوا أن يدخل المسلمون عليهم مكة رغم ما ساقه المسلمون من هدى ورغم أنهم جاءوا للبيت

(١) سورة يونس ٣١/١٠

(٢) سنن أبي داود الثالث أن هذا مقيد بغير صيد الحرم أما صيد الحرم فلا يجوز لمحرم ولا لغير محرم ومن فعل ذلك فله جزاؤه .

زواراً وعماراً لا يريدون قتالاً ، ولا شك أن هذا المنع كان له أثره في نفوس المؤمنين . وهذا مادعاهم إلى أن يفكروا في منع من جاء من المشركين معتمراً من مواصلة طريقه لمكة معاملة للمشركين بالمثل . ولكن الرسول قد عقد مع القوم صلح الحديبية . ولا بد من الوفاء ؛ ولهذا قال تعالى : « ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعدلوا . » وقال : « ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا . عدلوا هو أقرب للتقوى . »

والقرآن يسوقها قضية عامة ، وقاعدة أصيلة لتكون من أسس معاملة الأمة الإسلامية لغيرها من الأمم .

وفي تعبيرات القرآن عن هذه القاعدة ما يدفع بها في أعماق النفس المؤمنة فلا تمتلك أن تحيد عنها . : فهو يعبر عن الكراهة والبغض بالشأن والشأن شدة الكراهة وشدة البغض ، ويعبر عما يدفع إليه هذا البغض الشديد بقوله : (ولا يجرمكم) وهو لفظ معبر كل التعبير عما يعتمل في الصدور من كراهة للكفر والكافرين .

وحين يضيف الشأن إلى القوم ، والمقصود بالقوم أهل مكة يريد بها قاعدة عامة فيجعل القوم نكرة لتشمل أهل مكة وغيرهم .

ومع أن المسلمين يردون بعض ما وقع عليهم من عدوانا ويصدون من صدمهم عن البيت إلا أن الله قد جعل صد المسلمين للكافرين عدوانا فقال : « ... أن تعدلوا » .

أى لا يحملنكم ما حدث منهم على الاعتداء عليهم بمنعهم من القدوم إلى بيت الله الحرام ، وما ذلك إلا لأن المسلمين قد التزموا بهد وموتق هو عهد الحديبية فلا يجوز لهم أن ينقضوه إلا إذا نقضه المشركون ؛ كما حدث — فيما بعد — وكان نقضهم للعهد سبباً لفتح مكة كما هو معلوم من سيرة الرسول عليه السلام وتاريخ المسلمين ..

وأخيراً يؤصل قاعدة أخرى هي أساس الحضارة الإنسانية والمشعل الذي

أثار به المؤمنون درب الحياة المظلم فأبصر الناس الطريق وذلك إذ يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

فما هو البر ؟ وما هي التقوى التي يأمر الله المؤمنين بالتعاون من أجل إيجادها وتحقيقهما في حياة المجتمع الإنساني ؟

إن البر اسم جامع للخيرات كلها ، ومن أمثلة ذلك ما نراه في قول رسول الله ﷺ وقد سأله النّوّاس بن سميان عن البر والإثم فقال : البر : حسن الخلق ، والإثم : ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس ^(١) .

وما نراه في قوله عليه السلام لوا بصمة : البر ما أطمان إليه القلب ، وأطمانت إليه النفس ، والإثم : ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك ^(٢) .

وما نقرؤه في آية البر تلك التي يقول فيها عز وجل رداً على افتراءات اليهود وإثارتهم للفتنة حين تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٣) .

فمن جمع هذه الصفات فهو البار ، ومجموع هذه الصفات هو البر .. والبار هو المتقى .. ولهذا قيل : إن البر والتقوى لفظان مترادفان لمعنى واحد ، وإن

(١) أخرجه ابن أبي شبة ، والبيخارى فى الأدب ، ومسلم والترمذى والحاكم والبيهقى عن النّوّاس بن سميان .

(٢) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والبيخارى فى تاريخه عن وا بصمة .

(٣) سورة البقرة ٢ ١٧٧ .

كنت أميل إلى أن البر أقرب ما يكون في معاملة الخلق ، والتقوى أقرب ما تكون في معاملة الخالق ، ومن جمع بين حسن معاملة الخلق وحسن معاملة الخالق فقد استكمل الخير كله . ولهذا قال الماوردي : « إن في البر رضا الناس ، وفي التقوى رضا الله ، فمن جمع بينهما فقد تمت سعادته » .

وإذا كان الله قد أمر المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى فقد نهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان فقال : « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

والإثم : كما عرفناه من قول رسول الله ﷺ هو : ما حاك في النفس وخفت أن يطلع عليه الناس .. إنه حالة الضعف التي تصيب النفس البشرية فتدفعها إلى التفكير — أحياناً — في أمور لو اطاع الناس عليها لكانت موضع مؤاخظة وسخرية .. ولهذا يخفيها الإنسان عن الناس .. ومن رحمة الله بالمؤمنين أنه لا يحاسبهم عما حاك في صدورهم مادام لم يخرج لجز الواقع والتنفيذ .. بل لو هم الواحد منهم بسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة .. كما ورد في حديث رسول الله ﷺ : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك : فمن هم بحسنة ولم يعملها كتبت الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعلها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعلها كتبها الله سيئة واحدة » .

وما دمتنا قد عرفنا أن الإثم الذي لم يخرج لمجال الواقع يثاب عليه صاحبه إذا كان قد امتنع خوفاً من الله وحياءاً منه . فإن العدوان الذي نراه في الآية هو ما خرج للواقع .. فعلى من يكون هذا العدوان ؟

هل هو عدوان المرء على غيره أو عدوانه على نفسه .. الآية مطلقة شاملة لكل أشكال العدوان وألوانه .. والتعاون على الإثم والعدوان من أخطر ما تتعرض له الأمم .. إنه تهديد لأمنها ، وتدمير لكيانها ، وتحطيم لقواها .. وليس مجرد التفكير في الخطيئة هو ما ينهى عنه رب العزة بل ما ينهى عنه هو أن تتضافر جهود الجماعة على إقامة المنكر ، وأن تنسق خططها على أساس من الاعتدال والظلم وسلب الضعفاء حقوقهم .

والجماعة المؤمنة مأمورة بالتعاون على البر والتقوى ومنبهة عن التعاون على الإثم والعدوان : فتجأ لباب الخير كله ، وإغلاقاً لأبواب الشر كلها وبهذا تكون لها الريادة والقيادة إلى أبواب السعادة والسلامة والأمان للدنيا كلها . ويأمن الفرد في نفسه من نفسه وتصبح الجماعة آمنة في حاضرها ومستقبلها .

ويأتي ختام الآية أصراً فيه الكثير من التهيب ، وذلك إذ يقول سبحانه : « واتقوا الله . إن الله شديد العقاب » .

فكل ما سبق من أوامر ونواهٍ تحتاج إلى حماية القلب المؤمن ، ورعاية النفس المطمئنة إلى ربها ، تحتاج إلى مداومة الرقابة لله ، والبحث عما يرضيه عز وجل ، ولهذا كان الأمر بالتقوى ، وكان ما يتبعها بل ما يتبع كل ما سبق في الآية من الإخبار عن الله بأنه شديد العقاب ..

ومن يطبق عقاب الله الشديد ؟ ومن الذي يؤمن بأن لقاء الله حق ولا يخشاه ويتقيه ؟

هذا هو النداء الثاني ، وما ترتب عليه من وجوب التعظيم لبيت الله وعماره . وما بنى على هذا النداء من صروح شاخعة فيها السعادة والأمان لبني الإنسان !

(ح) صيد الحرم .. واصطياد المحرم حكم ذلك وجزأؤه

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً ، فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تحشرون . » (سورة المائدة ٩٤ / ٥ — ٩٦)

بنداء الإيمان ينادى الله المؤمنين ليحملهم مسؤولية الإيمان ، وليضع هذا الإيمان موضع الاختبار ، يقول الحسن البصري ليس الإيمان بالتجلى ولا بالتمنى ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال (١) .

إنهم يحرمون ، والمحرم لا يحل له الاصطياد ، ولكن هذا اختبار صعب فقد أرسل إليهم الصياد : « تناله أيديهم » لأنه قريب منهم يمكن لهم أن يمسكوا به دون عناء أو صغير يستطيعون أن يتناولوه بسهولة .. وتناول رماحهم ما بعد منه كما تنال كبار الصيد .. فهل يقدمون على ارتكاب هذا المحذور ؟

لقد بين لهم ربهم أنه لا يجوز لهم ذلك ، وأن هذا عنوان الخوف من الله فمن اعتدى بعد أن بين له ربه ما بين استحقاق العذاب الأليم ..

(١) كتاب اقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي ص ١٧٧ .

والآية على هذا خطاب للمجرمين .. وسبب الزول يوضح ذلك : « فقد قال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية فكانت الوحش والطيور والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا .. ففهم الله عن قتله وهم محرمون » (٢) .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : « ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم » قال : « هو الضعيف من الصيد وضعفه يبتلى الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم ففهم الله أن يقربوه » (١) .

وقيل الآية خطاب لغير المحرمين ، لأن الآية بعدها أوضحت حكم المحرمين حين قالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » .

وعلى هذا فالصيد المحرم في الآية هو صيد الحرم وهو لا يحل لمحرم أو لغيره قال الإمام الشوكاني : اختلف العلماء في المخاطبين بهذه الآية : « هل هم المحلون أو المحرمون ؟ فذهب إلى الأول مالك ، وإلى الثاني ابن عباس ، والراجح أن الخطاب للجميع ، ولا وجه لقصره على البعض دون البعض » (٣) .

وبمجموع الآيتين ، وما سبق في أول السورة من قوله : « غير محلي الصيد وأنتم حرم » . وقوله : « وإذا حللتم فاصطادوا » . يتبين أن المحرم لا يجوز له الاصطياد في أي مكان من البر كما سترى في الآية التالية : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم لكم صيد البر ما دمتم حرماً » .

فإذا أحل من إحرامه جاز له ذلك ، كما يتبين أن صيد الحرم لا يجوز لأحد أبداً محلاً أو محرماً .. قال رسول الله ﷺ : « إن هذا البلد حرمه الله ولا يعرض شئ كره ولا ينقر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها » (٤) .

(١) ، (٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٩٧ .

(٣) فتح القدير ج ٢ ص ٧٧ .

(٤) أخرجه الشيخان .

بمقتضيات إيمانه ، ويقف عند كل أمر ونهى مطيعاً خالقه ؛ مستجيباً لكل ما أمر به ، منتهياً عن كل ما نهى عنه .

لقد بدأت الآيات بنداء الإيمان ، وقد عرفنا فيما سبق سر هذا النداء بهذا الوصف بالذات ؛ ناداهم ليبين لهم أنه سيختبرهم اختباراً صعباً : سيرسل إليهم الصيد تغشاهم في رحالهم : فلو شاء وإمسك صغار هذا الطير لأمسكوه ولو شاء واصطياد كباره لاصطادوه ، ولكنه تعالى قد حرم عليهم ذلك لأنهم محرمون أو حرم عليهم في الحرم ، والقرآن يعبر عن هذا بأنه « ابتلاء » ويجعل المبتلى والختبر بهذا هو الله ، ويقسم هذا القسم المؤكد بكل ألوان التأكيد فيقول :

« ليلونكم الله بشيء من الصيد . » ويظهر ما فيه من الابتلاء حين يقول : « تناله أيديكم ورماحكم . » وبين الحكمة في هذا فيقول : « ليعلم الله من يخافه بالغيب . » فكان هذا التحريم مدرسة يتربى فيها المسلم على منج الخوف من الله ، والمراقبة الدائمة له . . . وليعلم المحرم أنه باحرامه قد تسامى بروحه فلا يلبق به أن يؤذى طيراً أو حيواناً ، ولا يصح له أن يشتغل بلهوه عما هو فيه من التجرد والإخلاص لله .

ومن تعود هذا ، ومن فهم هذا ، لا بد أن يعرف لأخيه الإنسان حقه ؛ وإذا كان الاعتداء على طير أو حيوان فيه العقاب الأليم ، فما بالك بالاعتداء على الإنسان ؛ وله حق الصلة ، إن لم تكن في الأخوة في الله وفي النسب وفي الجوار وفي الإنسانية فهي في واحدة منها ؛ وليعلم من دخل حرم الله وحرم رسوله أنه دخل في رحاب الأمان ؛ وولج إلى ساحة التربية الإلهية ليعود منها مزوداً بالأخلاق النبيلة والصفات العظيمة ، إنه لا يحل له أن يمد يده بالأذى لحيوان أو طير أو نبات ؛ وإن فعل أثم وتحمل مغبة فعله ، وأنى مؤمن أن يستحل في حرم الله وحرم رسوله ما حرم الله ورسوله ؟

وانظر إلى تعبير القرآن عما يتحملة من امتدت يده أو سلاحه لحيوان أو طير بأذى : « فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . » فيجعل هذا اعتداءً ، ويظهر عدم العذر في هذا الاعتداء ، وما فيه من تهجم على ما أمر الله به حين يقول :

« من اعتدى بعد ذلك . » فقوله : « بعد ذلك » أى بعد هذا البيان الجلي الواضح ، وهذا الحكم الذي لا يحتمل التأويل ولا يتطرق إليه الاحتمال .

ويأتى قوله . « فله عذاب أليم » رادعاً لمن تسول له نفسه إرتكاب هذا الخطأ في عبارة بليغة تحمل كل التهديد ؛ وذلك ما تلمحه من قوله . « فله . » وتقديمها على « عذاب أليم » وكأن هذا عذاب مخصوص قد أعد لهذا المعتدى وهو عذاب لا يعرف مقداره إلا الله ؛ وذلك ما تراه من تنكير كلمة « عذاب » إذا أضفنا إليها وصف العذاب بأنه « أليم » وهي من صنيع المبالغة تبين لنا قدر هذا العذاب . هذا بالإضافة إلى اسمية الجملة . وفي هذا ما يدل على عدم ارتباط ذلك العذاب بزمان أو وقت محدود فكانت عذاب ثابت دائم لا يعرف نهايته إلا الله القوى الجبار .

والآية التالية : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم . » تأكيد لحرمة الصيد على المحرم . إن قلنا إن الآية السابقة خطاب للمحرم . أو تأكيد لجانب منها إن قلنا إنها تعم المحرم وغيره وهي تأتي مفصولة عن الآية السابقة مبدوءة أيضاً بنداء الإيمان . وبعد النداء يأتي النهي « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » نهياً صريحاً يحرم على كل محرم قتل الصيد في الحرم وغيره .

وبعد النهي تحدثنا الآية عن جزاء من قتل الصيد فتقول : ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة . أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليدوق وبال أمره .

مع أن العمد والخطأ سواء في وجوب هذا الجزاء إلا أن في ذكر التعمد هنا تنفيراً من إرتكاب ذلك وتشجيعاً على من فعله .

ومن الفقهاء من قال : إن من أخطأ بأن ربي شيئاً فأصاب صيداً . ومن نسي أنه محرم فاصطاد . لاشيء عليهما . ولكننا نميل إلى الرأي الأول . وهو رأى الأئمة الأربعة وكثير من الصحابة والتابعين وغيرهم من وجوب الجزاء على المحرم عامداً ومخطئاً وناسياً .

هذا الجزء « يحكم به ذوا عدل منكم » وما سبق فيه حكم للسلف أخذ به . وما لم يسبق فيه حكم . حكم به رجلا ن عدلان من المسلمين . وهذا ما رآه الشافعي وأحمد . وقال مالك وأبو حنيفة : « يجب الحكم في كل فرد فرد . سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا لقوله تعالى : يحكم به ذوا عدل منكم .. » (١)

وحيث يقول سبحانه : « هديا بالغ الكعبة » إنما يرشدنا إلى أن هذا ليس بمجرد شاة تذبح ، إنما هو هدي : فهو — إذن — شعيرة من الشعائر : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » . فليصنع به ما يصنع بالهدى من الارسال إلى مكة والتجر هناك والإشعار والتقليد .

وفي وصف هذا الهدى بأنه « بالغ الكعبة » .. دليل على أنه لا يجوز أن يذبح في غير الحرم فكل مكان في الحرم يحقق بلوغ هذا الهدى إلى الكعبة ؟

وفي هذا الوصف أيضاً : تعظيم للهدى ، وتعظيم للكعبة .

وفي الأمر الثاني : « أو كفارة : طعام مساكين » . نلمح شيئين هامين : أولهما : تنفير المؤمن من واقعة هذا المحذور ، وذلك ما تراه في اختيار كلمة « كفارة » فالتكفير لا يكون إلا من ذنب .

وثانيهما : جعل هذه الكفارة : طعام مساكين ، وفي هذا الإطعام تعويد على البذل والعطاء ، وتجريد للنفس من نزعة العدوان التي دفعت صاحبها إلى قتل الصيد ، وفي هذا الإطعام كذلك غرس لخلق الرحمة والمحبة والعطف على البؤساء ، وكلها معان سامية يعود عليها الاسلام أتباعه كلما حانت لذلك فرصة وتلك المعاني يغرسها الاسلام وهو يوجب في الكفارة إطعام مساكين سواء كانوا مساكين الحرم فيمن اشترط ذلك أم مساكين موضع الصيد أو أقرب موضع إليه إن لم يكن فيه مساكين كما قال الامام مالك .

ويأتي الأمر الثالث : « أو عدل ذلك صياماً » بأن يصوم عن كل مد يوماً ليكون معادلاً لسابقه من الهدى أو الإطعام ، وليتربى المؤمن — بالصوم — على كبح جماح النفس وإلزامها بتعاليم الله ، فإن النفس لا تتجاوز حدودها ، ولا يضطرب بها المسير إلا في فترات الضعف التي تعترها ، وهي بذلك في حاجة إلى ما يقويها ويثبتها أمام عواصف الشهوة والهوى ، والصيام خير مدرسة يتعلم فيها المؤمنون كيف يثبتون أمام الشدائد ، وكيف يقفون في وجه موجات الضعف البشري التي تدفع إلى ارتكاب ما حرم الله .

وبعد تلك الأمور الثلاثة التي جعلها الله لمن قتل الصيد يقول سبحانه : ليدوق وبال أمره .

وكم في هذا القول من تنفير للمؤمن أن يرتكب تلك الجريمة .. فإن الذوق لا يكون إلا في الأمور الحسية فاذا جعل العقوبة التي يتحملها من قتل الصيد شيئاً يذوق ، وكأنها أمر محسوس ملموس دل هذا على قسوة السخيرة والتهكم بمن فعل ذلك . وهذا قوله تعالى لمن يصلح أشد أنواع العذاب في الجحيم : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » (١) .

وماذا يذوق ؟ إنه يذوق وبال أمره . والوبال : سوء العاقبة ، والمرعى الويل الذي يتأذى بعد أكله ، وطعام وييل : إذا كان ثقيلاً لا يستساغ .

إذا أمعنت النظر في قوله : ليدوق وبال أمره . ووقفت عند كلمة « أمره » لوجدت فيها تشبيهاً على من فعل ذلك . فلما نوحى بأن هذا أمر خطير وحدث جليل وخطب جسيم ، على من فعله أن يتحمل عاقبة فعله .

أما قوله تعالى : « عفا الله عما سلف » . أي ما كان منكم قبل الاسلام في الجاهلية أو ما وقع منكم قبل نزول هذا الحكم ، أو ما حدث منكم فنبتم عنه وكفرتهم بالهدى أو الإطعام أو الصيام ، فإن رحمة الله واسعة ، وقد غفر لكم ذلك وعفا عنكم .

ومع أن هذه الفقرة من الآية يبدو فيها عفو الله ، وتظهر فيها رحمته بخلقه .
إلا أنها مع ذلك تحمل في طياتها تشبيهاً للجرم الذي ارتكب حتى إحتياج إلى
عفو الله ، وحتى عبر عنه بقوله : «عما سلف .» والتعبير «بما سلف» دليل على
أنه أمر كبير يجب ألا يعود إليه عامل ، ولذلك قال : ومن عاد فينتقم الله منه .

فمن عاد إلى ارتكاب ما حرم الله من قبل الصيد وجب عليه الجزاء الذي
سبق تصفيته من الهدى أو الاطعام أو الصيام ، وكما وقع منه لزمه الجزاء .

ولكن التعيير عن هذا بأنه إنتقام ينتقمه الله من هذا الخالف ، قديوحى بأن
المسألة ليست مجرد هدى أو إطعام أو صيام ، يختار منها ما يشاء كلما عاد لعقله
ولكنها أكبر من ذلك ، فهذا العود المتكرر يدل على استهتار منه بما نهاه الله
عنه أو أمره به ، ولعل هذا هو مادعا ابن عباس رضى الله عنهما أن يقول :
«من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كما قتلته ، فإن قتله
عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة . فإن عاد يقال له : ينتقم الله منك كما قال
الله عز وجل .

وهكذا قال شرح ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصرى وإبراهيم
الزبيلى (١) .

ولكن الجمهور على أن من قتل وهو محرم أو قتل صيداً فى الحرم وجب
عليه الجزاء لا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر يستوى
فى ذلك الخطأ والعمد .

وبآتى ختام الآية : «والله عزيز ذو انتقام» مقررأ حقيقة قائمة فى نفوس
أهل الإيمان ، ومذكراً لهم بما لربهم من قوة واقتدار . فهو سبحانه عزيز :
لا يغلبه غالب ولا يمنع من أراد منه الانتقام مانع . وهو عز وجل . ذو
إنتقام : يعاقب من عصاه : لا يسأل عما يفعل .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٠١ .

وكم فى هذا الختام للآية من زجر وتخويف لكل من تسول له نفسه أن
يتعدى حدود الله ، فيقتل صيداً نهاه الله عن قتله ، وكم فيها من إرهاب لكل
من تعدى حدود الله وانتهك محارمه .

وإذا ما انتقلنا إلى الآية التالية : «أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم
والسنيارة ، وحرم عليكم صيد البر مادتهم حرماً ، واتقوا الله الذى إليه
تحشرون» .

لوجدناها تنفى العذر عن اصطاد ما حرم الله وترك ما أحل ، فإن ما أحله
كثير وكثير ..

فإذا كان سبحانه قد حرم على المحرم أن يصطاد فى أى مكان فى البر فقد
أحل له أن يصطاد من البحر ما شاء وأن يأكل من هذا الصيد لحماً طرياً أو أن
يجعله قديداً ولحماً محفوظاً يحمله معه فى أى مكان ويأكل منه كيفما شاء . . . كما
أن تحريم ما فى البر إنما هو تحريم مؤقت : إنه تحريم فى حالة الإحرام ، فإذا
أحل من إحرامه جاز له أن يصطاد من البر ما يشاء مادام فى غير الحرم .
والآية فى تعبيرها عن هذا الحسب ذات دلالات وإيحاءات : فهى تأتى
وكأنها إجابة عن سؤال سابق نشأ من الآيتين السابقتين مجمله : إذا كنت ياربنا
قد ابتليتنا واختبرتنا بتحريم الصيد فى الحرم : محلين ومحرمين ، وبصريحه فى
غير الحرم مادمت محرمين : فهل هذا التحريم ينطبق على كل ما نصطاده ؟ فقال
عز وجل : «أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم والسنيارة وحرم عليكم
صيد البر مادتهم حرماً» .

وفى صيد البر وطعامه وردت أقوال كثيرة .. منها : أن صيده : ما يضطاد
منه طرياً ، وطعامه ما يتزود منه هليحاً يابساً ، وعن ابن عباس : أن صيده
ما أخذ منه حياً : وطعامه ما لفظه ميتاً . . . وعن أبى بكر الصديق رضى الله
عنه : أن طعامه : كل ما فيه .

ومن هذه الآية أخذ جمهور العلماء حكم حل ميتة البحر ، كما استدلوا
(٩٠ - المسج)

بحديث أبي هريرة ، وفيه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إننا نركب البحر نحمل معنا القليل من الماء : فإن توشأنا به عطشنا ، أفترضنا بماء البحر ، فقال رسول الله ﷺ : هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته .

وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل ، وأهل السنن الأربعة وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم^(١) .

وللجمهور أيضاً أدلة أخرى من الأحاديث الصحيحة وكلها تؤكد أن أكل ميتة البحر حلال . والبحر مطلق ويراد به هنا كل مكان فيه ماء : بحراً وبحيرة ونهراً وعيناً وغيرها ، فإذا وجد في هذا الماء ما يصطاد كان هذا جائزاً للمحرم ولغيره ..

وقد بين لنا ربنا مافي ذلك من النعمة فقال : « متاعا لكم وللسيارة » أى أحل الله لكم هذا متاعا لكم : تأكلونه غضاً طرياً في حال إقامتكم ، ومتاعا للسيارة : أى المسافرين يجعلونه قديداً ويحتفظون به ويأكلونه .

وتأكيداً لحُرمة الاصطياد في البر التي نصت عليها الآيات السابقتان قال سبحانه : « وحرم عليكم صيد البر ما دهم حراماً » .

فإدام محرماً يحرم عليه أكل ما صيد في البر ..

لكن : هل المحرم من هذا الصيد هو ما اصطاده بنفسه واصطاده له غيره ، أو يحل له ما صاده غيره مادام لم يشارك في اصطاده بقول أو فعل ؟؟

بالرأى الثاني قال جمهور العلماء .. وفي هذا حديث أبي قتادة حين صاد حماراً وحشياً وكان أبي قتادة حلالاً لم يحرم وكان أصحابه محرمة فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال : هل كان منكم أحد أشار إليها وأعان في قتلها ؟ قالوا : لا ، قال : كلوا ، وأكل منها رسول الله ﷺ .

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٠٢

وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة^(١) .

وإذا كان الله قد حرم هذا على المحرم فهل هناك من يستطيع أن يفرض عليه هذا العقاب المذكور في الآيات ؟؟

لا أحد يستطيع أن يفرض عليه ذلك إلا إيمانه الحى وقلبه الجياش بالحق ، وصلته الوثيقة بربه تلك التي تدفعه إلى المحافظة على إحرامه حتى يؤدي نسكه ..

ولهذا كان ختام الآية : « واتقوا الله الذى إليه تحشرون » .

فقد أمرهم بالتقوى مطلقاً—ويدخل فيها دخولاً أولياً المحافظة على ما أحل الله والابتعاد عما حرم—ولفت أنظارهم إلى ما يدفعهم تخشياً لله والخوف منه فقال : الذى إليه تحشرون ، فهم يحشرون إلى الله لا إلى غيره : وكم في هذا الحشر من كشف للمستور ؟ وكم فيه من تخويف وزجر لكل من يتعدى حدود الله ويجرؤ على مخالفته .

ومرة أخيرة : هذا الجزاء في الدنيا والآخرة لكل من تسول له نفسه أن يقتل صيداً في الحرم أو من يقتل صيداً وهو محرم في الجبل والحرم ، فما بالك بأن يقتل إنساناً أو من يعتدى على كرامة البشر أو من يستحل دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ؟ إنه إن فعل ذلك لابد أن يذوق وبال أمره ، ولا بد أن يعلم أن هناك خطراً على إيمانه وإسلامه ، فالسلم - كما قال رسولنا صلوات الله وسلامه عليه - أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، وكل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه^(٢) .

والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دماهم^(٣) .

(١) ابن كثير ج ٢ ص ١٠٤

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن

(٣) أخرجه الترمذي والنسائي .

من علامة وشعار يرشد الناس إلى أنه متوجه إلى البيت الحرام فكانت الهدى، وكانت القلائد دليلاً واضحاً على أن هذا شيء خاص ببيت الله فاكنتسب كما اكتسب صاحبها الأمان، ولم يجرؤ أحد أن يمد يده إليها أو إلى صاحبها بسوء... وكان هذا سبباً في قدوم الوفود من كل مكان إلى هذا البيت لا تخشى عدواناً، ولا تخاف ظلماً، فكانت الكعبة وما تبعها من الشهر الحرام والهدى والقلائد سبباً في انتظام الحياة وقيامها على الوجه الصحيح.

وجاء الإسلام فوجد هذه المعاني التي يشع بها بيت الله فأكدها وقررها وأدخلها في منهجه بعد أن نقاها وطهرها من لوثات الجاهلية وحماقاتها وجهالاتها وما ألصقته بيت الله من خرافات وأوهام وضلالات..

فلننظر في الآيات الثلاثة التي حدثتنا عن هذه المعاني لنرى كيف عظم الله بيته، وجعل هذا التعظيم باباً تلج منه النفوس إلى ما يريد الله لبنى الإنسان من سعادة وسلام ومحبة ووثام..

فقد قال تعالى: « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس .. » فهو سبحانه أوجد الكعبة في هذا المكان من يوم أن أوجدها: تحمل الخير للناس وجعلها وسيلة تقرب بها حياتهم، وتنظم بها أمورهم، روى عن ابن عباس رضى عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم فتح مكة: « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمته الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمته الله إلى يوم القيامة^(١) »

وإذا كان الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام بحرمته الله إلى يوم القيامة، ففي هذا إشعار بما لها من عظيم المنزلة ورفيع المكانة، وما تستحقه من التكريم والتقدير... وإنما حازت مكة هذا الفضل بوجود بيت الله فيها، وإنما كانت حراماً تكريماً للكعبة وتشريفاً لها.

(١) رواه البخارى ومسلم .

(د) الكعبة : وتعظيمها

قال تعالى: « جعل الله الكعبة : البيت الحرام : قياماً للناس، والشهر الحرام والهدى والقلائد، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، وأن الله بكل شيء عليم، اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم، ما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون »
(سورة مائدة ٩٧/٥، ٩٨، ٩٩)

إن الله عز وجل حين خلق الخلق لم يتركهم سدى، يتخبطون في دروب الحياة ومتاهاتها دون دليل، فأرسل إليهم الرسل، وأنزل الكتب، وجعل لهم معالم ينتهون إليها، وحواجز تحجب الظلم عن المظلوم، وتمنع القوى من العدوان على حق الضعيف، ومن ذلك: الكعبة المشرفة العظمة..

والكعبة كما قال الله تعالى: « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة، مباركاً وهدياً للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً... »

ولقد واكب الكعبة جملة معان، وصاحبها عدة مثل وقيم ومبادئ، استنقرت كلها في ضمير بنى الإنسان من يوم أن خلق الله الإنسان وجعله مستخلفاً في هذه الأرض... فما هي هذه المعاني؟ وما هي تلك المثل والقيم والمبادئ التي انبعثت من وجود الكعبة في هذا المكان من أرض الله؟؟ إن الله سبحانه جعل هذه الكعبة وهذا البيت « مثابة للناس وأمناً » وجعلها وما حولها حرماً آمناً: يند إليها الحجاج في كل العصور، ويحتمعون عندها من كل مكان فيجدون في رحابها الأمان والسلام، والخيرات والبركات... وكان لابد للوافدين لها من زمن محدد معين لا يعتدى فيه أحد على أحد: توضع فيه الحروب، وتترك فيه العداوات، فكانت الأشهر الحرم، وكان لابد للقيام

وقال سبحانه: لا يلاف قريش إلا يفهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . (١)

فيكون المقصود بالناس هنا هم قريش خاصة . ومن يأتي للحرم من أنحاء الجزيرة عامة . أو تكون الآية دعوة للإنسانية كلها للدخول في حجي الإله . والإنضواء تحت حكمه . والإنتفاع بما شرع من وسائل . وما يرسم لعباده من منهج تنتظم به أمورهم وتستقر به أحوالهم ؟؟ هذا كله جائز في معنى الآية . وجائز في المراد بالناس .

والتعبير القرآني يفصل بين الكعبة وما تبعها من الأمور الثلاثة بقوله تعالى: « قياماً للناس » وما هذا إلا لأن الكعبة هي الأساس . وما ذكر بعدها من الشهر الحرام والهدى والقلائد أمور نشأت من وجود البيت في هذا المكان فكانت الكعبة هي الركيزة الأولى التي قامت بها حياة القوم . وهي السفينة التي سارت بهم إلى بر النجاة .

والشهر الحرام نشأ من حاجة القوم إلى فترة أمان يأمنون فيها على حياتهم وأموالهم حتى يتمكنوا من القدوم إلى البيت ، فهم حين يأتون إليه يقطعون على ظهور الإبل البوادي والقفار ، والليل والنهار ، والسفر على هذا الحال يدفع إلى العدوان ، ويسير الوسائل لإراقة الدماء ، ولهذا كان إختيار زمان معين في العام يحرم فيه القتل والقتال . فكانت الأشهر الحرم ثلاثة للبيح ميتوية هي: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والحرم ، وشهر للعمرة هو شهر رجب، فالشهر الحرام يفسره قوله تعالى: « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم »^(٢).

ويفسره قوله عز وجل في حجة الوداع: « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم

خلق الله السموات والأرض : السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضيّر الذي بين جمادى وشعبان . . .»^(١)

أما الهدى والقلائد : فقد عرفنا روعة التعبير القرآني فهما ونحن نستشف أسرار هذا القرآن في الآية الثانية من سورة المائدة : موضوع هذه الآيات .

وإذا كان الله قد جعل الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد وسائل لإسعاد للناس وأسباب راحة واطمئنان وأمان ورقى وإزدهار ، وإذا كان الله قد جعلها أسساً تشاد عليها حياتهم فلا شك أن هذا أمر عال وغال ، وله منزلته وتقديره ، إنه أمر تقدر ما فيه من القوائد والمنافع نفوس عامرة بالله ، مرتبطة بهديه : إنه يكشف لنا عن جانب من جوانب الحكمة الإلهية التي تخلق ما تخلق وتوجد ما توجد ، وتشرع ما تشرع لحكم وغايات ، قد يكشف عنها الحاضر الملبوس أو المستقبل القريب أو للمستقبل الضارب في أعماق الزمن ، ولهذا قال سبحانه: « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيء عليم » .

فأشار بقوله « ذلك » إلى ما سبق من جعله لهذه الأمور الأربعة وسائل حياة للناس لما في هذه الأمور من علو الدرجة وبعد المنزلة في نظام الحياة الإنسانية .

وفيما ذكره سبحانه بعد اسم الإشارة كشف لجانب من جوانب حكمته، فيما أوجد ، وبيان يلتفت العقول المنكرة إلى علم الله المحيط لما في السموات وما في الأرض ، فسبحانه من إله عليم حكيم حين جعل الكعبة مصدر حياة للناس ، فقد كان هذا حكمة رأينا آثارها ولسناها واقعاً مشهوداً وعبر عن

هذه الحكمة أصدق تعبير قوله سبحانه : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم » ..

ولا يخفى عليك أن قوله تعالى : « أن الله بكل شيء عليم » تعميم بعد تخصيص يرشدنا إلى تمام علمه وشموله وإحاطته .

وهذا الإله العليم الحكيم جدير أن يرهب وأن تصان حدوده ومحارمه ، فمن استحل ما حرم الله ، ومن اعتدى على ما للكعبة من حق التعظيم ، ومن انتهك حرمة الشهر الحرام أو الهدى أو القلائد فلينتظر انتقاماً مروعاً ، وعذاباً قاسياً ، إلا إن تاب ورجع وأتاب فإن رحمه الله لا يبخل بها على المستغفرين المتيبين ، وهذا ما نراه في قوله تعالى : « إعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم » .

فكما رأينا أثراً من آثار حكمته ما نلنا في الكعبة وما تبها فشهدنا له سبحانه بالعلم التام ، وعرفنا مدى حكمته فيما شرع ، فلنعلم أن هذا الإله الحكيم العليم شديد العقاب إن انتهك محارمه واستمرأ المعصية ، وهو - أيضاً - غفور رحيم لمن تاب وأتاب .

لكن من لم يتب ولم يرجع عن غيه وبقية وعدوانه هل يسأل عنه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؟

هل يستطيع عليه السلام أن يهدي من أضل الله ؟ تأتي الآية التالية تطمئن الرسول العظيم ﷺ وتهدد الظالمين المعتدين على حرمت الله ، الراضين لنداء الحق فتقول : « ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبون وما تكتمون » .

فرسول الله ليس مكلفاً بهداية القوم ، وليس له أن يجبرهم على الإيمان ، إنما هو مكلف - فقط - بتبليغ وحى الله إليهم ، أما هم فقد لزمهم الحجة ، ولن يغيب عن الله ما يظهرون من الملائنة والمراوغة أو المكر والدهاء ، كما لن تخفى عليه ما اشتملت عليه صدورهم من الضيق والحسد والحقد والكراهية لله ولرسوله ، فهو سيجازيهم بهذا كله .

إن لم يفيئوا إلى ضلال الإسلام الوارفة ، وإن لم يعظموا حرمت الله وشعائره ، « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » ولن تقبل منهم هذه التقوى إن لم يكن منبعا إيمان كامل صادق بالله ورسوله وإسلام تام لله رب العالمين .

وبهذه الآيات عرفنا كيف عظم الله بيته ، وكيف رفعه إلى المنزلة العالية الباسقة تحقيقاً لحكمته فيما أراد لعبادة من الخير العميم والنفع الجزيل . فسبحانه من إله حكيم عليم خير . . .

الفصل الثالث

من أحكام الحج ومعاييره

في سورة البقرة

قال تعالى: « وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوه ووسم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فإذا أمتم ، فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب .. الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وترودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولي الأبواب ، ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ، فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ، واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه . لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون . »

(سورة البقرة ٢/ ١٩٦ - ٢٠٣)

جاءت هذه الآيات من سورة البقرة تبين بعض أحكام الحج وتقرر عدة

معايير ومبادئه وقيم ومثل تفرد بها هذا الدين العظيم . وجاء بها ليرسى دعائم الحق في أرض الله ، وليربط للإنسان بخالقه ، فيؤدي هذا الإنسان وظيفة الإستخلاف في الأرض مستنيراً بهدى الله ، مستضيئاً بنور الوحي الرباني .

وقد جاءت هذه الآيات وما قبلها وما بعدها في سورة البقرة إقراراً للمنهج الإلهي في تعهد الأمة المسلمة بالتربية والرعابة والتوجيه : فقد ذكر لنا ربنا قبل تلك الآيات صفات الإنسان البار ونادى الأمة المؤمنة بفرض عليها القصاص في القتلى وبين لها أحكام الوصية وأحكام الصيام كما نهى عن أكل أموال الناس بالباطل وبين أن الأهلة مواقيت للناس والحج كما دعا إلى الجهاد في سبيل الله وأمرنا أن نقاتل المشركين حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، ووضع أساس الجهاد حين أصر بالإتفاق في سبيل الله : فان إعداد المجاهدين يستلزم بذل المال الكثير ، وإذا شح الناس بأموالهم هلكت الأمة وتعرضت للدمار ، ولهذا قال : « وأتقوا في سبيل ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » . فالإحسان مطلب أهل الإيمان ، إنهم يبذلون غاية وسعهم لتأتي هذه الأحكام التي أمرهم الله بها على خير ما يحب ربهم ويرضى ، إنهم يجعلون من إحسانهم في أداء أعمالهم وسيلة ينالون بها رضا مولاهم الذي أخبرهم بأنه يحب المحسنين .

وعلى طريق هذا الإحسان يأمرهم الإله الكريم ويوضح لهم ما يجب عليهم أن يلتزموا به إذا ما أرادوا الحج والعمرة ، وبين لهم بعض أحكام الحج ومعاييره فيقول : « وأتموا الحج والعمرة لله » الآيات ..

فلتتابع هذه الأحكام وتلك المعايير كما نطق بها الوحي الإلهي وأوضحها ألقاظ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة المشرقة .

١ - وأتموا الحج والعمرة لله ..

إن هذه الأحكام بدأت بقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » .. فما المقصود باتمام الحج والعمرة ؟ وما معنى أن يكون هذا الإتمام لله ??

إن الأمر لا يرد باتمام شيء إلا إذا كان قد بدى فيه . . . ولهذا اتفق العلماء على وجوب إتمام مناسك الحج والعمرة إذا ما أحرم بهما المؤمن ، بدليل قوله بعد هذا الأمر : « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » .

يقول ابن عباس : « من أحرم بحج أو بعمره فليس له أن يحل حتى يضمهما : تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت وبالصفاء والمروة فقد حل » .. وعنه أيضاً أنه قال : « الحج عرفة والعمرة الطواف » (١) .

أما قبل الشروع فيهما فليس في الآية دليل على وجوب الحج والعمرة ، فإذا ما أردنا أن نعرف حكم كل منهما فعلياً أن نبحت عن أدلة أخرى . . . وحينذاك سيتضح لنا أن الحج واجب وركن من أركان الإسلام ، وأن العمرة سنة ، وأن وجوب الحج ليس موضع خلاف إنما موضع الخلاف هو العمرة هل هي واجبة أو مندوبة ؟

وقد قال بالوجوب جمع من الصحابة والتابعين منهم : علي وابن عباس وابن عمر وعائشة وزين العابدين وطاووس والحسن البصري وابن سيرين وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء ، وهو المشهور عن الشافعي وأحمد ، وحجتهم في هذا ما روى عن أبي وزين العقبلي أنه أتى النبي ﷺ فقال : إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا النطق (أي السفر) فقال : حج عن أبيك واعتمر . . . » (٢)

وفي هذا يقول الإمام أحمد : لا أعلم في إيجاب العمرة حديثاً أجود من هذا ولا أصح منه . . . ، ومن أدلتهم على الوجوب أيضاً ما روى عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله : هل على الناس من جهاد ؟ قال : نعم ، عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة . . . » (٣)

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٣٠ .

(٢) رواه الخمسة وصححه الترمذي .

(٣) رواه أحمد وابن ماجه وإسناده صحيح .

أما من قال بأنها سنة مؤكدة تؤدي مرة واحدة في العمر : فهم الحنفية والمالكية ، وحجتهم في هذا إقتصاره ﷺ على الحج في يانه لأركان الإسلام الخمس كما أن ذلك ما تراه في قوله تعالى . والله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، فقد إقتصر على الحج أيضاً ولم يذكر العمرة ، ومن أدلتهم أيضاً ما روى عن جابر أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أخبرني عن العمرة : أواجبة هي ؟ فقال : لا ، وأن تعتمر خير لك (١)

يقول الإمام الشوكاني بعد أن ساق كثيراً من أدلة الفريقين : « والنحو عدم وجوب العمرة لأن البراءة الأصلية لا ينتقل عنها إلا بدليل يثبت به التكليف . ولا دليل يصلح لذلك ، لا سيما مع إعتضاءها بما تقدم من الأحاديث القاضية بعدم الوجوب . . . » (٢)

وإذا كان معنى إتمام الحج والعمرة إتماماً أفعالهما بعد الشروع فيهما ، فما معنى أن يكون هذا الإتمام لله ؟ ؟

إن هذا تأصيل لقاعدة إسلامية تنبئ عليها حياة الإنسان المسلم ، تلك القاعدة هي الإخلاص لله في السر والعلن ، وطلب مرضاته في كل قول وفعل ، وفي كل حركة وسكون . وتفسيراً لهذا الإخلاص في أداء الحج والعمرة

(١) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ، ولكن في إسناده الحاج بن أوطاة وهو ضعيف ، وتصحيح الترمذي له فيه نظر ، لأن الأكثر على تضعيف الحجاج ، واففقوا على أنه مدلس .

(٢) نيل الأوطار ج ٤ ص ٣١٤ ط مصطفى البابي الحلبي بمصر - الطبعة الأخيرة سنة ١٩٧١ م .

(٣) ساق الشوكاني في كتاب المناسك بعض الأحاديث في أن العمرة تطوع . ولكنه عقب على تلك الأحاديث بالتضعيف .

نجد كثيراً عن عبارات أئمة السلف : منها قول مقاتل : إتمامها ألا يستحلوا فيها ما لا ينبغي ، ومنها قول بعضهم : إتمامها : إتفاق الحلال الطيب في سفرها ، ومنها ما روى عن علي وابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس أنهم قالوا : إتمامها أن تحرم من دويرة أهلك . . . وقريباً من هذا ما روى عن سفيان الثوري أنه قال : إتمامها أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات ، ليس أن تخرج لتجارة ولا حاجة حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت : لو حجبت أو اعتمرت . .

يقول ابن كثير : « وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له ، لا تخرج لغيره (١) . وكان عمر رضئ عنه ينهى عن الإعتبار في أشهر الحج ويرى أن هذا من تمامها ، وذلك ليكثر الوافدون لبيت الله الحرام على إمتداد العام . . . وهذا ما رواه القاسم بن عبد ، وقائدة فهما يقولان : إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة ، ولكن يرد على هذا بفعل الرسول ﷺ : فقد « اعتمر أربع عمر كلهما في ذى القعدة : عمرة بالحديبية في ذى القعدة سنة ست و عمرة القضاء في ذى القعدة سنة سبع ، و عمرة الجعرانه في ذى القعدة سنة ثمان و عمرته التي مع حجته أحرم بهما معاً في ذى القعدة سنة عشر ، وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته ، ولكن قال لأُم هاني : عمرة في رمضان تعدل حجه معي ، وما ذاك إلا لأنها قد عزم على الحج معه عليه السلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر كما هو مبسوط في الحديث عند البخاري .

٢ - فان أحضرت ما استيسر من الهدى :

هذا هو الحكم الثاني في الآية وهو الإحصار . فما هو الإحصار ؟ وماذا يفعل المحصر ؟ الإحصار : هو المنع . . . فهل كل ما يمنع المحرم من الوصول لمكة يوجب الفداء والقضاء وهل يمكن أن نقول : إن من تمكن من الوصول وأدى بعض المناسك ومنع من البعض يعتبر محصراً ؟ وماذا سمى الفقهاء من لم

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٠

يدرك وقت الوقوف بعرفة سواء كان ذلك بعد أم بغير عذر ؟ وماذا يفعل هذا وذلك .

يرى الأحناف أن الحصر يتحقق بالمنع من الوصول إلى مكة بعد الإحرام بالعدو أو مرض أو غيرها ودليلهم في هذا قوله تعالى : « فان أحضرت . . . فقد قالوا : هناك فرق بين الإحصار والحصر . الإحصار : يكون بالمرض ونحوه ، والحصر يكون بالعدو ، والذي في الآية هو الإحصار ، إنما يدخل فيه حصر العدو لأن العذر بالعدو في المنع أقوى ، ومآراه الحنفية هو الموافق لما قال أهل اللغة ، فقد قال ابن العربي : هذا رأى أكثر أهل اللغة ، وقال الزجاج : إنه كذلك عند جميع أهل اللغة . وقال أبو جعفر النحاس : على ذلك جميع أهل اللغة ، ويؤيد الحنفية في ذلك ما أخرجه أصحاب السنن الأربعة بأسانيد صحيحة عن عكرمة قال : سمعت الحجاج بن عمرو الأنصاري يقول : قال رسول الله ﷺ : من كسر أو عرج فقد حل وعليه الحج من قابل ، قال عكرمة : سألت ابن عباس وأبا هريرة عن ذلك فقالا : صدق .

ويرى الشافعية وأهل المدينة : أن المراد بالحصر في الآية هو المنع بالعدو بدليل قوله : فاذا أمنتم . . . والأمن يكون من العدو ، أما الأمن من المرض ونحوه فبعيد ، كما أن الآية نزلت عام ست في الحديبية حين منع المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه من دخول مكة لأداء العمرة ، فيكون الحصر بالعدو هو المقصود لا غير ولا يلحق به غيره . .

وفي هذا يقول ابن عباس : لا يحصر إلا حصر العدو فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء إنما قال الله تعالى : « فاذا أمنتم فليس الأمن حصرأ » (١) :

وإنما يتحقق الإحصار بالمنع من الوقوف بعرفة والطواف ، وهذا عند

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣١

(١٠٢ - الحج)

الحنفية ، وعند الشافعية يتحقق بالمتع بالعدو من الوقوف أو الطواف أو السعي .

وإذا كان هذا هو الإحصار فإن هناك القوات أيضاً وهو قريب من الإحصار ، وذلك بأن يطلع حجر يوم النحر ولم يقف الحرم بعرفة سواء كان ذلك بعد أم بغير عذر ، فقد قال عليه السلام : « الحج عرفة » (١) .

فمن لم يحضر وقت الوقوف فاته الحج .

فماذا يفعل المحصر ؟ وماذا يفعل من فاته الوقوف بعرفة ؟

أما بالنسبة للمحصر فقد قال تعالى : « فان أحصرتم فما استيسر من الهدى » أى فما تيسر من الهدى ، فعليه أن يذبح شاة في موضع إحصاره كما قال الشافعية أو بيعتها للحرم لتذبح عنده أو يبعث بشمئها لتشتري به ثم تذبح هناك كما قال الحنفية على ألا يتحلل إلا بعد مرور وقت كاف يمكن للهدى أن يصل فيه للحرم ويذبح تحقيقاً لقوله تعالى : « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله » ويذبح الهدى يتحلل من احرامه ، وقال الشافعية : لا يتحلل إلا بعد الذبح والحلق أو التقصير بدليل فعله صلى الله عليه وسلم لذلك يوم الحديبية ، وبفعله اقتدى أصحابه رضئ الله عنهم :

وإذا كان المحصر قد تحلل من احرام حج واجب أو عمرة واجبة وجب عليه القضاء ، فان كان مأخول منه غير واجب فعند الحنفية يجب القضاء ، وعند الشافعية لا يجب .

ومن فاته الوقوف بعرفة عليه أن يتحلل بهمة بأن يطوف ويسعى ثم يحاق أو يقصر ، وعليه الحج من قابل إذا كان الذى فاته هو الحج المتروك ، أما النفل فعند الأئمة الأربعة يجب عليه القضاء ولقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » وذلك عام في الحج والعمرة فرضاً أو نفلاً ، وفي رواية عن مالك وأحمد : أن النفل لا قضاء فيه . .

(١) رواه البخارى .

ومع التحلل بالعمرة والقضاء هل يجب عليه هدى ؟ عند الحنفية : لا هدى عليه ، وعند الأئمة الثلاثة : يجب عليه هدى يذبحه في حجة القضاء ، وذلك لما رواه مالك في موطنه بسند صحيح : أن أبا أيوب الأنصارى خرج حاجاً حتى إذا كان بالنازبة من طريق مكة أضل رواحله ، وأنه قدم على عمر بن الخطاب يوم النحر فذكر ذلك له فقال عمر : أصنع كما يصنع المعتمر ثم قد حلت فاذا أدركك الحج قابلاً فاحجج وأهد ما استيسر من الهدى .

٣ — ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله :

وهذا هو الحكم الثالث في الآية : فما صلته بالحكمين السابقين : هل هو تابع لقوله : « وأتموا الحج والعمرة لله » ، أو لقوله : « فان أحصرتم فما استيسر من الهدى » ؟

جمهور العلماء يرى أن هذا النهى تابع لقوله : « وأتموا الحج والعمرة لله » ، لا لقوله : « فان أحصرتم فما استيسر من الهدى » . لأن المحصر يذبح هديه في موضع الإحصار ولا يجب عليه أن يبعث بهديه إلى الحرم هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أحصر في الحديبية .

وقد رأى الأحناف - كما سبق أن بينا - أن المحصر يجب عليه أن يبعث شاة تذبح عنه في الحرم أو يبعث بشمئها لتشتري به ثم تذبح هناك ولا يتحلل إلا بعد أن يمضى وقت يتمكن فيه من يأخذ الشاة أو يشتريها من الوصول للحرم وذبحها عنده . .

وقد أجاب الحنفية عن نحره صلى الله عليه وسلم في الحديبية بأن طرف الحديبية من الحرم فالرسول صلى الله عليه وسلم ذبح الهدى في الحرم .

وأما من قال إن هذا النهى تابع لقوله : « وأتموا الحج والعمرة لله » فقد رأى أن الحلق يأتي بعد إتمام أفعال الحج والعمرة لمن كان فارناً أو بعد الفراغ من أحدهما لمن كان مفرداً أو متمتعاً ، فقد ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال :

« إنى لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر ». ومحل نحر الهدى كما قال تعالى : « لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق » .

وعلى هذا نستطيع أن نفهم حكم الترتيب بين الحلق والذبح ؟ ومن الواضح أن هذا الترتيب واجب ويؤيده فعله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال : « خذوا عني مناسككم » . كما يؤيده قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا نفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (١) .

ففضاء النفث هو إزالة الشعر وقد جاء بعد الذبح فدل على وجوب الترتيب وهذا رأى الأحناف فمن قدم الحلق على الذبح وجب عليه دم تأخير ، وقد ذهب الشافعي وصاحبنا أبي حنيفة إلى أن هذا الترتيب سنة ، ومن ترك السنة فقد أساء ولكن ليس عليه فداء ودليلهم في هذا ما روى عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه رجل يوم النحر وهو واقف عند الجرة فقال : يا رسول الله حلقت قبل أن أرمي ؟ قال : أرم ولا حرج ، وأتاه آخر فقال : إنى أفضت إلى البيت قبل أن أرمي ؟ فقال ، أرم ولا حرج وفي رواية عنه « أنه شهد النبي صلى الله عليه وسلم يحطب يوم النحر فقام إليه رجل فقال : كنت أحسب أن كذا قبل كذا ، ثم قام آخر فقال : كنت أحسب أن كذا قبل كذا ، حلقت قبل أن أنحر ، نحررت قبل أن أرمي ، وأشباه ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أفعل ولا حرج .. لمن كلهن ، فما سئل يومئذ عن شيء إلا قال : أفعل ولا حرج » (٢) .

عن ابن عباس : « أن النبي ﷺ قيل له في الذبح والحلق والرمي والتقديم والتأخير فقال : لا حرج .. » (٣)

(١) سورة الحج ٢٢/٣٣ ، ٢٨ ، ٢٩

(٢) (٣٤٢) متفق عليه .

وهذا أيضاً رأى المالكية : فقد رأوا أن الترتيب بين الحلق والذبح غير واجب ، فلو فعل واحداً منهما قبل الآخر جاز وليس عليه شيء .

وبالحق يحصل التحلل الأول فيحل له كل ما كان محظوراً عليه إلا الجماع فإنه لا يجوز له إلا بعد طواف الإفاضة . وبه يتحلل التحلل الثاني .

٤ — فمن كان منك مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك :

هذا حكم من حلق رأسه بعد إحرامه وقبل أن يأتي الوقت المعلوم لإزالة شعره ؟ وهو في هذه الحالة عليه فدية بخير فيها بين أمور ثلاثة : الصيام : ثلاثة أيام ، أو الصدقة : ثلاثة أصعب لسته مساكين ، أو النسك : شاة .

وفي هذا حديث البخاري بسنده إلى كعب بن عجرة إذ قال لمن سأله عن الفدية من صيام : « حملت إلى النبي ﷺ والقمسل يتناثر على وجهي فقال : ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا ، أما تجد شاة . قلت : لا قال : صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام وأحلق رأسك ، يقول كعب : فزلت في خاصة وهي لكم عامة .

وهذه التدية لمن كان منك مريضاً مرضاً يؤدي به إلى حلق رأسه أو من كان برأسه أذى كما رأينا من حال كعب بن عجرة . أما العامد الذي لا عذر له ، وأما المعذور بغير المرض والأذى كالناسي والجاهل بالحكم والمكروه فقد اختلفت فيهم أقوال الأئمة :

فالأحناف : يرون أن الواجب على هؤلاء الدم عينا أو الصدقة عينا على حسب جنائهم إلا أنهم قالوا بسقوط الإثم عن المعذور بغير المرض والأذى . وإن وجب عليه الفداء . والأئمة الثلاثة : جعلوا العامد كالمعذور بخيرا بين الأمور الثلاثة ، أما المعذور . بغير المرض والأذى فعليه الفداء بخيرا عند المالكية . وعليه الفداء بخيرا بين الشافعية والحنابلة إن كانت الجنائية فيها إتلاف كالحلق

والتقصير وتقليم الأظفار ، وليس عليه شيء فيما ليس فيه إتلاف كاللبس وتغطية الرأس والطيب .

وهذه الفقرة من الآية هي القاعدة التي بنى عليها الأئمة آراءهم فيما يجب على المحرم من الفداء إذا مال بس شيئاً غير ملابس الإحرام ، أو غطى رأسه ، أو حلقها ، أو قصرها ، أو قلم أظفاره ، أو تطيب أو أدهن بخالف بذلك ما يجب عليه حال الإحرام .

وتفصيل القول في هذا مرجعه إلي كتب الفقه ، وحسبنا هذا القدر في بيان معنى قوله تعالى : فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك . « وإن كان قد بقي علينا أن نعرف المسكان الذي يؤدي فيه الفداء : يقول الشوكاني (١) : « اختلفوا في مكان هذه الفدية فقال عطاء : ما كان من دم فبمكة ، ومن كان من طعام أو صيام فحيث شاء ، وبه قال أصحاب الرأي ، وقال طاووس والشافعي : الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكة ، والصوم حيث شاء ، وقال مالك ومجاهد : حيث شاء في الجميع ، وهو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان . »

هـ — التمتع والقران :

قال تعالى : « فإذا أنتمم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتن تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن يكون أهله حاضري المسجد الحرام . »

حين نقرأ قوله تعالى : فإذا أنتمم تتساءل : مم يكون الأمان ؟ هل الأمان من العدو خاصة أو منه ومن غيره كالمرض ونحوه .. المتبادر من سياق الآية ومن معنى الأمان أن الأمان لا يكون إلا من العدو خاصة . وهذا ما يؤيد رأي الشافعي وأهل المدينة الذين تناولوا : إن الإحصار لا يكون إلا من العدو إما المرض وغيره فالمتع به لا يسمى حاضراً .

(١) فتح القدير ج١ ص ١٩٦ ط الثانية ١٩٦٤ - مصطفي البالي الحلبي بصر

وبعد الأمان وزوال الخوف على المحرم أن يتم نسكه . فما هي الصورة التي أحرم بها .. هل أحرم بالحج فقط [وهذا هو الأفراد] أو أحرم بالحج والعمرة معا (وهذا هو القران) أو أحرم بالعمرة في أشهر الحج ، وبعد أن طاف وسعى حلق وتحلل ، وانظر إلى يوم التروية في مكة « وهو اليوم الثامن من ذي الحجة » فأحرم بالحج ، (وهذا هو التمتع) وهو التمتع الخاص والمشهور من كلام الفقهاء ، والقران والتمتع كلاهما يسمى التمتع العام ، لأن القران إستفاد عمرة مع حج في سفرة واحدة كما أن من أحرم بالعمرة فأداها وتحلل تمتع بما كان محظوراً عليه أثناء إحرامه ولما جاء يوم التروية أحرم بالحج فاستفاد أيضاً حجاً وعمرة ، ولذلك لا يجب على المفرد فداء إنما يجب الفداء على القران والتمتع بأن يذبح كل منهما ما استيسر من الهدى وأقله شاء ، وله أن يذبح البقر لأن النبي ﷺ يذبح عن نسائه البقر وكن متمتعات .

ووقت ذبحه يوم النحر بمنى وقبل الحلق عند الحنيفة ، وعند الشافعية : وقت الوجوب يبدأ من الإحرام وله أن يذبح بعد أداء العمرة ولكن الأفضل ذبحه يوم النحر للاتباع وخروجاً من الخلاف ..

فاذا لم يجد الهدى : إما لعدم المال أو لعدم الحيوان ، « فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتن » . فبني يصوم هذه الأيام الثلاثة ؟ وإلام يكون الرجوع ؟ هل هو رجوع إلى رحله وأمتعته أو رجوع إلى أهله ودياره ؟

قال العلماء : الأولى ان يصوم الأيام الثلاثة قبل يوم عرفة في العشر ، وقال ابن عباس : يجوز له أن يصومها من حين إحرامه ، والأفضل كما رأى جلة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وعلى أن يصوم يوماً قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة ، أما يوم العيد فلا يجوز صيامه ، وذلك لما ورد عن أبي سعيد المذري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام يومين : يوم الطر ويوم النحر (١) .

(١) تنفق عليه .

كذلك أيام التشريق لا يجوز صيامها لما رواه مسلم عن نبيشة الهذلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله .

ومن فاته الصيام قبل العيد تحلل ووجب عليه دمان : دم التمتع ودم التحلل قبل نحر الهدى عند الحنيفة ولا يلزمه سوى قضاء صومها عند الشافعية .

وإذا كان قد صام الأيام الثلاثة فقد بقي عليه صيام سبعة أيام . فتي يصومها ؟ يقول الله تعالى : « وسبعة إذا رجعت » . فلم يذكر إلى أى شيء يكون الرجوع ؟ هل هو رجوع إلى الرحال أو رجوع إلى الأهل والديار والأوطان ؟ .

بالأول قال مجاهد وعطاء بن أبي رباح . والثاني قال جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم حتى حكى ابن جرير الإجماع على ذلك ويؤيدهم في هذا مارواة البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للناس حين قدم مكة في حجة الوداع : من كان منكم أهدى فإنه لا يبل لشيء حرم منه حتى يقضي حجه ، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليل بالهج فم لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله .

وبصيام الثلاثة والسبعة تكمل العشرة ، ولذلك قال : « تلك عشرة كاملة » وهذا من باب التأكيد كما تقول : كتبت يدي ، وسمعت بأذني ، وكما قال تعالى : « ولا طائر يطير بجناحيه » (١) وكما قال : « ولا تحطه يمينك » (٢) .

وقال الزجاج : إنما قال سبحانه : « تلك عشرة كاملة » مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة عشرة ، لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام في الحج والسبعة إذا رجع .. وقال المبرد : ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لثلاث يتوهم متوهم أنه قد بقي منه شيء بعد ذكر السبعة (٣) .

(١) الأنعام ٣٨/٦

(٢) العنكبوت ٤٨/٢٩

(٣) فتح القدير للشوكاني ج ١ ص ١٩٧ .

وهذا التمتع وما فيه من التذية لغير أهل الحرم أما هم فلا تمتع لهم قال تعالى : « ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام » .

يقول ابن عباس : يا أهل مكة لامتعة لكم ، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم وادياً أو قال : يجعل بينه وبين الحرم وادياً ثم يهل بعمره (١) .

وقد اتفق العلماء على أن أهل الحرم لامتعة لهم ولكن هل هذا خاص بأهل الحرم أو يلحق بهم من في حكمهم كمن هم دون المواقيت كآتال عطاء ومكحول أو من كان من الحرم على مسافة لا يقصر فيها الصلاة كما قال الشافعية . لكل وجهه .

وختاماً لهذه الآية يقول سبحانه : « واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » .

وتقوى الله والخوف منه لهما هنا أهميتهما : إذ لا تؤدي أعمال الحج على وجه التمام والكمال ، إلا إذا قام بها المؤمن منبهاً من إيمان عظيم بالله وماله من صفات الجلال والكمال . . . وأى سلطة وأى قوة في الأرض غير سلطان الله وقوته لا يمكن لها أن تدفع الإنسان إلى أداء تلك الأعمال في إخلاص وحب .

ومن لا يتق الله ولا يخشاه ؟ ومن يجرؤ على مخالفة أمر مولاه ؟ إن الذي لا يتق ربه ولا يخشاه ، والذي يتعدى حدود خالقه ومولاه : جاهل غافل أحمق وعليه أن يتبصر مواضع أقدامه قبل أن يخطو خطوة واحدة في طريق معصية الله ، وعليه أن يعرف قدر الإله الذي سيقدم عليه لا محالة ، لا بد أن يعلم هذه الحقيقة قبل أن يخالف أوامر ربه ، ولهذا قال سبحانه : « واعلموا أن الله شديد العقاب » .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٥

ومن ذا الذى يطبق هذا العقاب؟ ومن ذا الذى لا تحسب له ألف ألف حساب؟ إلا إذا كان من العافلين.. ودل تعنى الغفلة عن أهلها في مواقف الدمامة والحسرات؟ وهل تنفع هؤلاء ما يسكبون يوم اللقاء من العبرات؟!!

٦ — الميقات الزمانى .. وبعض ما يجب على المحرم :

قال تعالى :

« الحج أشهر معلومات : فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب . »

بعد أن بين لنا ربنا بعض أحكام الحج ومعاييره ، أراد أن يؤدبنا ببعض الآداب الربانية ، وأن يجعل من الحج فرصة لتدريب المؤمنين على مكارم الأخلاق ، والسمو النفسى ، والرفعة في الشعور والسلوك فقال : الحج أشهر معلومات .. الآية .

والاية من بدايتها تبين لنا أن الحج غير العمرة : فالعمرة يمكن أن تتكرر في العام الواحد عدة مرات ، ويمكن أن تؤدى في أى وقت ، أما الحج فهو مرة واحدة في العام ، له مدة محددة وأشهر معلومات : لا يجوز التقديم عليها ولا التأخير عنها بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تخفى على أحد .. تلك الأشهر هي : شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، ولهذا لو أحرم بالحج في غير هذه الأشهر لا يتعد إحرامه ، بهذا قال الشافعى وابن عباس ، وعند الأئمة الثلاثة : يجوز الإحرام بالحج في جميع أيام السنة إلا أن الإحرام به في أشهره أكل .

فمن أحرم بالحج في أشهره وجب عليه أن يتم مناسك الحج كما عرفنا ذلك لقوله تعالى .. وأتمموا الحج والعمرة لله .. وهذا معنى الفرض في قوله تعالى : فمن فرض فيهن الحج .. أى من أزم نفسه بالحج « بالشروع

فيه بالنية : قصداً باطناً ، وبالإحرام : فعلاً ظاهراً ، وبالتلبية : نطقاً مسموحاً ، وقال أبوحنيفة : إن إزامه نفسه يكون بالتلبية أو بتقليد الهدى وسوقه ، وقال الشافعى : تكفى النية في الإحرام بالحج . (١) من فرض ذلك على نفسه دخل في تجربة من تجارب الإيمان ، وولج طريقاً له آداب وشروطه ، فإذا ما نجح في تجربته ، وإذا ما سلك الطريق ملتزماً بتلك الآداب والشروط فقد فاز ونجا ورجع من حجه كيوم ولدته أمه . وهذه الآداب وتلك الشروط . هي ما نقرؤه في قوله تعالى : فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج .

والرفث : هو الجماع ودراعيه والتحدث به في حضرة النساء . والجماع قبل الوكوف بعرفة : مفسد للحج باجماع العلماء ، وعلى من فعل ذلك : الاستمرار في حجه الفاسد إلى نهايته ، والقضاء في المستقبل — ولو كان حجه تفلأ ، وذبح شاة في حجة القضاء ، أما بعد الوكوف وقبل التحلل الأول : فلا يفسد حجه عند الحنفية وعليه بدنة ، وعند الأئمة الثلاثة : يفسد حجه وعليه بدنة . أما بعد التحلل الأول : فلا يفسد حجه وعليه شاة . أما مقررات الجماع : فإن كانت مباشرة : كالقبلة واللمس بشهوة والمباشرة بغير جماع وجب عليه شاة ولا يفسد حجه ، وإن كانت غير مباشرة : كالتنظر والفكر بشهوة فلا شيء عليه .

هذا هو الرفث ، أما التسوق : فهو الخروج على طاعة الله . وكلمة التسوق كلمة عامة تشمل كل معصية ، ولهذا نرى في بيان مدلولها عدة أقوال للعلماء : فمنهم من يقول : التسوق : هو الذبح للإحرام قال تعالى : قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ، أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير فإنه رجس . أو فسقاً أهل لغير الله به . (٢)

ومنهم من يقول : التسوق هو التنازع بالألقاب . قال تعالى : ولا تنازروا بالألقاب . بئس الاسم التسوق بعد الإيمان . (٣)

(١) فتح القدير للشوكاني ج ١ ص ٢٠٠

(٢) سورة الأنعام ٦ ١٤٥

(٣) سورة الحجرات ٤٩ ١١

ومنه من يقول : فسوق : سباب المسلم ، فقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر . (١)

ومن قال بأنها عامة في كل معصية أصحاب الحقيقة .

« والجدال » المجادلة والمخاصمة والمنازعة مع الرفاق وغيرهم .

وكم في الإبعاد عن هذه الأمور الثلاثة من تربية وتدريب على الطاعة والإخلاص وحسن الخلق وكريم الخلال .

وقد نهي الله عنها في أبلغ صورة : فهو بين لنا من البداية أن المؤمن هو الذي أُلزم نفسه بأداء هذه المناسك حين أقدم على أداء ما افترضه الله عليه من حجج بيته ، أو مانده به إلى الإكثار من الحجج والزيارة لهذا البيت العتيق . ومثل هذا المؤمن جدير به أن يتعد عن المعاصي ، خاصة في هذا الموقف العظيم ، لهذا ساق إليه ما نهاه عنه في ضرورة النفي تأكيداً لهذا النهي وحثاً للمؤمن على تنفيذ أوامر ربه . وكأنه قال : هذه أمور لا تنبغي للمؤمن فكيف بمن عقد النية على طاعة مولاه ، فاتهوا عن هذه الأمور الثلاثة .

وبالاتهاء عن تلك الأمور . بالإبتعاد عن الشهوات والمعاصي ، والمخاصمة والمنازعة مع الآخرين تصفوا النفس ويريق الشعور ، وينفتح القلب على معاني لم يكن ليعرفها من قبل . إنه مستعد للخير يؤديه خالصاً لوجه الله الكريم ، ولهذا حث عليه سبحانه بعبارة تحمل الكثير من الإيحاءات والدروس فقال : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله . » وكيف لا يعلمه وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟ وكيف يخفي عليه شيء من أمر العباد وهو الذي لا يغرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

والمؤمن واثق من هذا تمام الوثوق ، ويعرف أن ربه هو المطلع على ما قدم

(١) متفق عليه .

من خير ، وهو الذي سيجازيه على ذلك أعظم الجزاء ، فليشتر المؤمن لواء خيره على الناس جميعاً ، وليتنبهز فرصة هذا الموسم الكريم ليفيض خيراً وبراً وعطفاً وسخاءً فيروى المحرومين لأن ذلك كله لا يضيع عند علام الغيوب .

وإنها لمناسبة طيبة يرشد الله فيها عباده إلى التزود بخير الزاد ، ولذلك قال : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » .

وقد روى في سبب نزول هذا الأمر عدة روايات : منها ما أخرجه البخاري وأصحاب السنن عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحججون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون فأُنزل الله : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » .

ومنها ما رواه ابن جرير عن نافع عن ابن عمر قال : كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأثروا زاداً آخر فأُنزل الله تعالى : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » .

فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكحك .

وعن ابن عباس : كان أناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة يقولون : نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله : تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس (١) .

فهو بهذا يضع معياراً ثابتاً للتوكل ، ولا يرضى للمؤمنين التواكل ، فما داموا قد عزموا على أداء مناسك الحج فعليهم أن يستعدوا له بالزاد الذي يكفهم في ذهابهم وإيابهم ، وفي هذا تنبيه إلى شرط هام من شروط وجوب الحج وهو الاستطاعة ، وقد عرفنا شيئاً من ذلك ونحن نتدارس قول الله تعالى : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » .

ولكنه حين يذكر هذا الزاد يبينها إلى الزاد الحقيقي وهو التقوى ، وإذا كان

(١) انظر ابن كثير ج ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

من الواجب على المؤمن أن يتزود بالطعام والشراب وغيره لسفر قصير لا يستمر
غير أيام قلائل ، فما بالك بالسفر الطويل في رحلة الآخرة :

أرضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد??

فعلى المؤمن العاقل البصير أن يعترف من هذا الزاد ما يعينه على هذا السفر
الطويل في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ولذلك
جاء في ختام الآية : « واتقون يا أولى الألباب » .

فبعد أن رغب في التقوى أمرها موجهاً الذاء لأولى الألباب وهم أصحاب
العقول الراجحة والبصائر النيرة ، والأفئدة الواعية ، فهؤلاء هم الذين يدركون
حقيقة ما إليه يصيرون ، فيحملون له من تقوى الله والخوف منه ما به
يفوزون .

٧ - التكسب في الحج - والإفاضة من عرفات - والوقوف عند
المشعر الحرام :

قال تعالى : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ، فإذا أفضتم
من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كنتم
من قبله لمن الضالين ، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله إن
الله غفور رحيم » .

يحمل مطلع هاتين الآيتين جانباً من رحمة الله بخلقه ، وما في هذا الدين من
يسر ، وذلك برفع الحرج عن ابغى الرزق والتكسب في موسم الحج رغبة في
تحصيل الخيرين : الكسب الحلال ، والحج المبرور .

وكم تبدو لنا هذه الرحمة الإلهية واضحة حين نقرأ : « ليس عليكم جناح
أن تبتغوا فضلاً من ربكم » .

والفضل هو الرزق من التجارة وغيرها من أنواع الكسب ، واجتماع ذلك :
طلبه والبحث عنه .

والجناح : هو المؤاخذة على الفعل ، وفي نفي ذلك نفي لتلك المؤاخذة ،
والكلمة تشعر بأنه قبل نزول هذه الآية كان هناك حرج . . فما سبب هذا
الحرج ??

إن المولى حين أمر بالتزود للدار الآخرة ، وجعل أيام الحج لحظات يسلاً
فيها المؤمن جرابه فضلاً وثواباً وقراباً وربحاً وفيراً وخيراً أجز بلا كأن النفس
المؤمنة تخرجت من العمل في الحج ورأت أن العمل قد بصرفها عن التفرغ
للعادة ، وأن التجارة قد تؤدي أحياناً إلى الجدال والمخاصمة في زيادة السعر
ونقصه فيخالف العبد بذلك ما نماء عنه ربه من الجدال في الحج ، هذا بالإضافة
إلى ما في مزاولة التجارة من إلهاء وتشاغل عن ذكر الله . .

ولهذا ورد عن ابن عباس أنه قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة في موسم
الحج يقولون : أيام ذكر فأزول الله : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً
من ربكم .

وروى عن أبي أمامة التيمي قال : قلت لابن عمر : إنا أناس نكربى في
هذا الوجه إلى مكة وإن أناساً يزعمون أنه لا حج لنا فهل ترى لنا حجاً ؟
قال : ألسنتم تحرمون وتطوفون بالبيت وتقضون المناسك ؟ قال : بلى ،
قال : فأتم حججكم ، ثم قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ . فسأله عن الذى سألت
فلم يدر ما يعود عليه ، أو قال : فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت « ليس عليكم
جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » فدعا الرجل فتلاها عليه وقال : أتم
حججكم » (١) .

كما أن هناك سبباً آخر لهذا الحرج يذكره ابن عباس فيما رواه البخارى
عنه قال : كانت عكاظ ومجنة وذو الحجاز أسواقاً في الجاهلية فتأتموا أن يتجروا
في الموسم فنزلت : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » في موسم
الحج .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٢٠ .

ولا يخفى عليك أن التكسب والعمل في موسم الحج لا يقصد لذاته ولا تتجه النية إليه ، إنما يقصد المؤمن ثواب ربه وأداء نسكه وتعظيم شعائر ربه ، فإن قصد التجارة والمال والدنيا وحدها فهو وما قصد ، وقد « إتفقوا على أن التجارة إن أوقعت نقصاً في الطاعة لم تكن مباحة ، وإن لم توقع نقصاً في الطاعة كانت مباحة وتركها أولى لقوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » (١) والإخلاص هو أن يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة ، والحاصل : أن الإذن في هذه التجارة جار مجرى الرخص (٢) .

وبعد أن نبى الحرج عن ابتغوا الفضل من ربهم أمرهم بذكره عند المشعر الحرام فقال : فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام وأذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين .

والإفاضة : هي الدفع بكثرة ، وأنت تعرف أن « الحج عرفة » وأن عرفات موضع يتجمع فيه الحجاج في وقت واحد بلباس واحد يتأدون رياً واحداً لبيك اللهم لبيك ، وأنت هذا الجمع الحاشد يتحرك بغروب شمس اليوم التاسع إلى المزدلفة للمبيت بها وهناك يقفون عند المشعر الحرام .

ولو وقتت تلقى النظر على جموع الحجاج وقت إنصرافها من عرفات لرأيتهم كالسيل الجارف في تدفقه وجريانه . ومن هنا كان تعبير القرآن عن ذلك : بالإفاضة من عرفات ، وعرفات : تعرفها ولا تخفى عليك . وقد وردت الروايات الكثيرة في سبب تسميتها بهذا الاسم يقول الأوسى : « سمي هذا المكان المخصوص بلفظ ينبيء عن المعرفة : لأنه نعت (أى وصف) لأبراهيم عليه السلام فعرفه . روى ذلك عن علي كرم الله وجهه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما أو لأن جبريل كان يدور به في المشاعر فلما رآه قال : قد عرفت . روى عن عطاء . أو لأن آدم وحواء إجتمعا فيه فتعارفا :

(١) سورة البينة ٩٨/٥

(٢) الفتوحات الإلهية للعلامة المجل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ ط الاستقامة بالقاهرة في رمضان ٩٧٧ هـ / ط ج ١ ص ١٥٩ .

روى عن الضحاك والستري : أو لأن جبريل عليه السلام قال لآدم فيه : اعترف بذنبك وإعترف مناسكتك : قاله بعضهم . وقيل سمي بذلك : لعلوه وإرتفاعه . ومنه عرف الديك (١) لارتفاعه .

وكل هذا يحتاج إلى دليل وإثبات . فالأصح أنه من الأسماء المرتجلة . وهي لا تعمل بعلة ولا يذكر لها سبب .

والمشعر الحرام هو المكان المرتفع بالمزدلفة المسمى « بقرح » والوقوف عند المشعر الحرام لا على المشعر الحرام ، وهو بذلك شامل للمزدلفة كلها ولا يختص بهذا الموضع بالذات فقد روى عن ابن عمر أنه رأى الناس يزدحمون على « قرح » فقال علام يزدحم هؤلاء ، كل ماهنا مشعر ، وعنه أيضاً : المشعر الحرام المزدلفة كلها (٢) .

والمشعر هو العلامة البارزة ، فالوقوف عنده شعيرة وعلامة ظاهرة على طاعة الله ، ووصفه بالحرمة لأنه من الحرم ، وفي الوقوف عنده ثلاثة أقوال للعلماء : أحدها أنه ركن في الحج لا يصح إلا به ، والثاني : أنه واجب يجبر تركه بدم ، والثالث : أنه مستحب لا يجب بتركه شيء .

والأمر بذكر الله عند المشعر الحرام يكون بالتلبية والتهليل والتحميد والدعاء والصلاة ، ويستمر ذلك إلى أن تسفر الشمس فيفيض الناس إلى منى لربى حجرة العقبة الكبرى في يوم عيد التحر .

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه صورة حياته لما فعله رسول الله ﷺ في هذه المواقف ، ومما جاء في هذا الحديث قوله : « فلم يزل واقفاً (يعنى يعرفه) حتى غربت الشمس وبتت الصخرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردت

(١) روح المعاني للالوسي ط / إدارة الطباعة المنيرية ببيروت - لبنان الطبعة الثانية ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ط ص ٢٤٢

(١١) الحج

أسامة خلفه ، ورفع رسول الله ﷺ وقد شق للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحلة ، ويقول يده اليمنى « أيها الناس : السكينة . السكينة ، كما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهله ووحده . فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع قبل أن تطلع الشمس (١) .

وفي موقف عرفة من الزوال إلى مغيب الشمس ، وفي موقف المشعر الحرام إلى إسفارها دروس وعظمت وعبر : فالموقف الأول دلالة على إنقضاء الدنيا وتقصانها وزوالها ، والثاني : « دال بنجره وشمسه على البعث مجازاة الخلاق بأعمالها » وموقف عرفات في الحل ، وموقف المشعر الحرام في الحرم « وفي جمع الموقنين في الحل والحرم في معلم الحج الذي هو آية الحشر إيدان وبشرى .

بأن أهل الموقف صنفان : صنف يقفون في موطن روع وخفاة وقوفاً طويلا ، اعتباراً بوقوف الواقفين بعرفة من حين زوال الشمس إلى غروبها ست ساعات ، وصنف حظهم من الوقوف قرار في أمانة ظل العرش الذي هو حرم يوم القيامة وكعبته ، فتشعر خفة الوقوف بالمشعر الحرام أن أمد طول ذلك اليوم يمر على المستظلين بظل العرش فيه كأيسر مدة ، كما نال عليه الصلاة والسلام : بمقدار صلاة مكتوبة ، فكان في ذلك فضل ما بين موقف الحرم على موقف الحل (٢) .

(١) رواه مسلم .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام المتسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٥٨٨٥ هـ ، ١٤٨٠ م ط الأولى ١٣٩١ هـ . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بمحيدرآباد الركن الهند ١٣٧١ ص ١٥٠ ، ١٥١ .

بولا أمر يذكره عند المشعر الحرام أراد أن يوضح لنا الصورة التي نذكره عليها فقال : « واذكروه كما هداكم » أي بالطريقة التي أرشدكم إليها وعلمكم إياها : طريقة الإتيان لا الابتداع ، طريقة الالتزام بالهدى النبوي دون الخروج إلى ما سواها فتلك هي الطريقة المثلى والغاية القصوى ، من تركها ضل . وهلك ، ومن ترك ما عليه رسول الله ﷺ واخترع لنفسه ألواناً من العبادات لم يأذن بها الله ولا الرسول فقد خسر خسرانا مبينا ، وعاد إلى الضلال بهد الهدى ، وإلى الظلام بعد النور ، ولذلك يقول سبحانه : « وإن كنتم من قبله لمن الضالين » أي من قبل هذا الهدى ، أو من قبل هذا الرسول وما جاء به من الهداية الربانية .

ولعل في قوله تعالى : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » .

ما يؤيد ما نقول : فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون « الخمس » (أي المتشددون في الدين) . وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يفيض منها فذلك قوله سبحانه : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس . فهو خطاب للناس عامة كما هو أمر لقريش أن يفيضوا من عرفات لا من المزدلفة كما كان عليه الناس قديما وحديثا .

وفي هذا الأمر تعريض بمن دفعهم الكبر والتعالي إلى تغيير ما شرع الله لإبراهيم عليه السلام ، وقد رأيت أنهم اختاروا لأنفسهم مكانا يفيضون منه غير ما كان عليه إبراهيم الخليل ، وكانوا يقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته (أي ساكنوه) فلا يقفون بغير الحرم أما غيرهم فيقفون بعرفات ، ولهذا جاء الأمر بطلب المغفرة من الله ذي الجلال والإكرام بعد الأمر بالإفاضة من حيث أفاض الناس ، قال سبحانه : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » . استغفروه لما كان منكم أيام جاهليتكم من بعد عن هدى الله ، واستغفروه لما بق في أنفسكم من عادات الجاهلية وأوضاعها ومفاسدها ، واستغفروه لكل

ذنب وكل تقصير . إن الله غفور رحيم ، فهو دائماً يستر العيوب ويغفر الذنوب . وهو يرحم المستغفرين والتائبين فسبحانه من إله غفور رحيم .

٨ - أيام منى : ختام مناسك الحج . . .

قال تعالى : « فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ، فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ، واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه تحشرون . »

بهذا البيان الواضح يرشد الله المؤمنين إلى طريقة ، ويطلب ما كان عليه أهل الجاهلية من تفاخر بالأحساب والأنساب ويظهر ما كانوا عليه من تحاسد وتباغض ، فقد ورد أنهم كانوا إذا فرغوا من حجهم وجاءوا إلى منى جعلوها ميداناً للتفاخر بالآباء والأجداد ، يقول الواحد منهم كان أبي يقرئ الضيف ويحمل السيف ويحمل الديات ، ويقول الآخر : كان أبي وجدى كذا وكذا يعدون مناقب آباءهم ويتناشدون في ذلك الأشعار ويتبارون في هذا الميدان بالسكلام المنظوم والمنثور تفاخراً وسمعة ورياء ، فلما جاء الإسلام قضى على تلك العادات الوضيعة وجعل أيام منى أيام حب وتعارف وتزاور وذكر لله ، والإسلام بذلك غرس مكان العداوة حياً ، وأبدل التفاخر تواضعاً والتظاهر والرياء إخلاصاً وذكر الآباء ذكر الله وجده قال تعالى : « فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم آباؤكم أو أشد ذكراً »

أى فإذا انتهيتُم من رى حجرة العقبة ونحرتُم وحلقتم وتحللتُم وطفتم طواف الافاضة وتعدتم إلى منى فاتهزوا تلك اللحظات في أيام التشريق واجعلوها لحظات عبودية لله وطاعة له وذكر لا يفتقر ، فذكر الله يشرح الصدور ، ويطمئن

القلوب ، قال تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (١) . »

وإذا كان الذاكرون لآبائهم تدفعهم حمية الجاهلية إلى المباهاة والسمعة فلا تفسر ألسنتهم عن ذكر آباءهم ، وإذا كانت أوداجهم قد انتفتحت بعصبية الجاهلية ، فليعلموا أن هذا كله قد انتهى زمانه وفات أوانه ، وأن الإيمان المستقر في القلوب هو الدافع الحقيقي الذي يدفعهم إلى مداومة ذكر الله ذكراً تتجاوب معه القلوب ، وتتطامن معه الأرواح ، ويختلج به الشعور لا مجرد كلمات تقال باللسان وعبارات تتردد على الأذان ليس لها من طعم أو روح .

وإذا كان قوله تعالى : « كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكراً » قد لفت أنظارهم إلى ما كانوا عليه في الجاهلية وما أصبحوا فيه من نعمة الإسلام فهو أيضاً يدعوهم إلى ذكر ربهم ذكراً دائماً لا ينقطع لأن ربهم هو ولي كل نعمة وصاحب كل فضل .

وبعد أن أمر بالذكر أوضح حال الذاكرين وهم فريقان : فريق ولي وجهته شطر دنياه ولا يذكر شيئاً آخر من أمر أخراه . وفريق ولي وجهته نحو مولاه ولم ينسى أن يطلب من ربه ما يعينه في دنياه على أمر أخراه . . . هذا هو ما نجد في قوله تعالى : « فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب . »

وهؤلاء الذين لا يعرفون من الحياة سوى دنياهم ويقولون ربنا آتانا في الدنيا ما نبتغي ، وحقق لنا ما نأمل بأخذون نصيبهم من الدنيا ولكن ليس لهم في الآخرة من نصيب ، يقول ابن عباس : كان قوم من الأعراب يمجثون إلى الموقف فيقولون : اللهم أجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ،

لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم : « فن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق » (١).

أما الذين جمعوا الخير من أطرافه وحازوا الفضل من كل جوانبه فهم الذين يدعون ربهم بهذا الدعاء الجامع : « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار » . حسنة تشمل كل خير دنيوي : من مال وجاه وعز وولد وصحة وهدوء واستقرار وسعادة وسرور ، وحسنة الآخرة : شاملة لكل خير أخروي من الأمن من عذاب القبر ومن هول البعث وهول المحشر والفرج الأكبر والأمن من عذاب الله وغضبه وناره ، ومن حسنة الآخرة : دخول الجنة والفوز بالنعيم القيم والخير العميم ولذة النظر إلى وجه الله الكريم ، وقد طلب المؤمنون ذلك كله ، وطلبوا الوفاة من عذاب النار ، وهو من حسنات الآخرة ، لأهمية هذا المطلب ، فهو يعنى تيسير الأسباب الموصلة إليه من التوفيق في الدنيا للاجتماع عن محارم الله والهداية لعمل الخير ، كما يعنى أيضاً : تيسير الحساب والنجاة من الهول ودخول الجنة ، وغير ذلك مما يهدف إليه طلب المؤمنين من ربهم أن يقيمهم عذاب النار ، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من هذا الدعاء : روى الإمام أحمد أن قتادة سأل أنس بن مالك : أى دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي ﷺ ؟ قال : يقول : « اللهم ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار » .

والذين يدعون ربهم بهذا الدعاء هم الذين أدركوا الغاية من دنياهم فخلوها وسيلة للسعادة في آخرهم ، وهم بذلك بلغوا المنزلة العالية والدرجة الرفيعة ، لذلك أشار إليهم ربنا بقوله : أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب » وما كسبوا هو الإخلاص والعبودية لله وحده والعمل بالهدى وبخدمة مولاهم ولهم على هذا العمل الجزاء الأوفر والنصيب الأوفى .

قال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم

جعلنا له جهنم يصلها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » (١).

وقال : من كان يريد حرث الآخرة زدله في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » (٢) .

وكم يحتاج العبد إلى متقال ذرة من الخير يقدمها بين يدي ربه في يوم الحساب ، ولذلك كان ختام الآية ، « والله سريع الحساب » فلا يشغله شأن عن شأن ، لا تلهيه كثرة الخلائق . فما أسرع حسابه لخلقه ، وما أشد حسرة الكافرين ، وما أعظم فرحة المؤمنين في هذا اليوم الرهيب .

وتأكيد اللداومة على ذكر الله ، وبياناً لمدة الإقامة في منى قال تعالى : وأذكروا الله في أيام معدودات ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن أتقى وأتقوا الله وأعلموا أنكم إليه تحشرون » .

فهذا أمر للحجاج في منى ، وبدخل معهم في هذا الأمر جميع المؤمنين كما هو رأى جمهور العلماء ، فكأن الله أمر المؤمنين عامة والحجاج خاصة أن يذكروا الله في أيام معدودات ، وهذه الأيام هي أيام منى وهي أيام التشريق الثلاثة ، فيها يرمى الحجاج الجمار مباينة وإصرار على رفض طريق الشيطان وإختياراً لطريق الرحمن (٣) .

وذكر الله في هذه الأيام الثلاثة بالتكبير عقب الصلوات المفروضة وعند رمي الجمرات وعند الذبح ، وذكر الله بقراءة القرآن والاستغفار وسائر ماتعرفه من ألوان الذكر فكله مستحب في هذه اللحظات المباركات فلا تكن من الغافلين . وأنت في منى بالخيار : إن رحلت إلى مكة بعد رمي اليوم الثاني فلا إثم عليك وإن بقيت إلى آذان المغرب عند الشافية أو آذان الفجر عند الحنيفة

(١) سورة الإسراء ١٧/١٨ ، ١٩ .

(٢) سورة الشورى ٤٤ ، ٢٠ .

(٣) راجع آراء العلماء في الأيام المعلومات في الفصل الثالث من الباب الثالث عند قوله تعالى ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام .

ويجب عليك أن تبقى في منى لليوم الثالث لرمي الجمار ، ولا إثم عليك في هذا أيضاً ، والأمران بذلك متساويان ولا حرج على من إختار أحدهما . مادام كل منهما قد اتقى الله وعظم شعائره . . .

وختاماً لهذا التشريع المحكم وتلك المعايير الالهية الناجية بأمر الله بالتقوى ويذكر يوم الحشر بعد أن إقتربت لحظات الوداع وحن وقت إنصراف الحجيج إلى ديارهم ، فيقول سبحانه : واتقوا الله وأعلموا أنكم إليه تحشرون .

إنهم الآن منصرفون من منى ليوعدوا بيت ربهم فعليهم أن يتقوا الله فيما يذرون وما يأخذون ، عليهم أن يجعلوا التقوى شعار حياتهم وأن يراقبوا ربهم في كل قول وعمل ، فهذا رأس مال الصالحين في يوم لا ينفع العبد فيه إلا هذا المال المدخر ، وعليهم أن يذكروا دائماً وأن يعلموا دائماً أنهم محشورون إلى الله وحده : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين « (١) .

وبعد :

فهذه آيات الحج في القرآن الكريم عشت وقتاً مباركاً مع ما فيها من أنوار وما توحى به من أسرار ، وإن بقيت تلك الآيات عاصرة بالمعاني الربانية والأسرار الالهية ، فلعلك يا أخى — إذا قرأتها بقلب مقنع بالإيمان ، مستنير بنور الله أن ترى جوانب أخرى من هذا النور الالهى .

أسأل ربى أن يبارك لنا في هذا القرآن العظيم وأن ينفعنا بما فيه من الذكر الحكيم ، وأن يجعلنا ممن أهدوا بهديه وإستضاءوا بنوره، فإن ربى على ما يشاء قدير وهو بلاجابة جدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين .

عبد الفتاح عاشور

تصويب الأخطاء

وقعت أثناء الطبع أخطاء لا تخفى على فطنة القارئ . وهناك بعض الأخطاء وتصويبها :

ص	السطر	الخطأ	الصواب
د	٥	معاير	معايير
هـ	١٣	على الاسلام	عن الاسلام
هـ	١٧	وتور الظلام	ونور الظلام
و	٦	مشرفة الأنوار	مشرفة الأنوار
و	١٩	الأثر المحمود	الأثر المحمود
٦	٩	كثيرة الخير	كثرة الخير
١٠	٢	ما فيه من الهداية والبركات	ما فيه من الآيات البيئات
١٠	٨١	حتى يلتفتون	حتى يلتفتوا
١١	٧	قدمية	قدميه
١١	١٢	أحمص	أحمص
١١	١٥	علاقة	علامة
١١	١٦	العلاقة	العلامة
١٤	٧	ما أوجب	ما أوجه
١٥	١٥	ط العنانية	ط الثانية
١٥	١٩	يكون	وأن يكون
١٦	٥	لايج	لاحج
١٧	١٤	سألما وبأذن الله	سألما بأذن الله
١٨	١٠	فينظرا	فينظروا
٢١	٤	وأرزقهم	وأرزقهم
٢٢	١٢	إينها	إنها
٢٢	٢١	تخوضه	تخوضه
٢٢	٢٢	فان هذا	فان هنا
٢٣	٢	وإينها	وانها
٢٣	٤	طار	طأرا
٢٣	١٣	وفي وصف	وفي وصفه
٢٨	١٦	لوجدناها	لوجدناه

الصواب	الخطأ	السطر	ص
فهو كل عالمهم	وكل عالمهم	١	٧٦
نجبية	نجبيه	١٨	٧٦
تنحر	تنكر	١٢	٧٧
أدران	أوراق	١٢	٧٨
صوى	صور	١٥	٧٩
فسيقولون	فيقولون	٥	٨٠
اتتنا	أنا	١	٨٢
فكان	فكان	١٩	٨٢
وعلاية	وعلاقة	١١	٨٥
وقيل	قيل	٨	٨٩
تطبيب	لتطبيب	٢٠	٨٩
تجرؤة	بجرأة	١٧	٩٧
اسعوا	أسعو	٢٣	٩٧
متطهراً	مطهراً	١٦	٩٨
في أمر	في أي	٨	١٠٠
شاكر يثبت	يثيب	٣	١٠١
الحرم	الحرام	١٨	١١١
صنيع	صنيع	٧	١٢٥
عاقل	عامل	٤	١٢٨
حواجز	حواجر	١٨	١٣٤
تقلد قلادة	قلادة	٢٢	١٣٤
وإذا	إذا	١	١٣٥
الجعل	بالجعل	٣	١٣٥
رزين	وزين	١٥	١٤٢
من	لمن	٣	١٤٣
اعتضادها	اعتضاءها	٩	١٤٣
الحجاج	الحاج	١٦	١٤٣
من	عن	١	١٤٤

الصواب	الخطأ	السطر	ص
وعملؤها	وعملها	٩	٢٩
وسير	وسير	١٢	٢٩
- إن شاء الله -	- إن شاء الله -	٢٢	٢٩
عازماً على تنفيذ	عازماً تنفيذ	٩	٣٠
بلغة	بلغه	١٢	٣٠
النبوة	النبوة	١٨	٣٠
من السكين	من السكين	٥	٣٢
مقيداً	مقيداً	١٧	٣٢
كان	كان	١٥	٣٣
وزيده	وزيده	٢٠	٣٣
عتبة	عتبت	٣	٣٧
يتقبل	تقبل	١١	٣٨
وقدوتها	وقدوتها	١٩	٤٢
آياتك	آياتك	١٠	٤٣
سدت	سرت	١٤	٤٣
يتلو	يتلوا	١٩٤٤	٤٤
أهل	أقل	١٢	٤٥
صاعنا	صالحنا	١٥	٤٧
التوحيد	بالتوحيد	١٤	٥٣
العظيم منافع ، وأى منافع .	العظيم . منافع ، وأى منافع	٢٣	٥٩
وفضل الله	وفضل بالله	٤	٦١
ناسكوه	ناسكوه	١٢	٦١
بؤكل	بأكل	٧	٦٢
متاج	محتاج	٨	٦٤
كله	كلمة	١	٦٥
عنق	عنق	١٢	٦٥
قال : الإشرارك بالله	الإشرارك بالله	٢٣	٧١
أراد	أساد	٢	٨٣
مربع	مربع	٤	٧٥
البأس	البأس	٢	٧٥

الاصواب	الخطأ	السطر	ص
رأوا	رأو	١	١٤٩
والجاهل	والجاهلي	١٧	١٤٩
الخدري	المذري	٢٢	١٥١
فسوق	فسون	٦	١٥٤
في قوله	لقوله	٢٢	١٥٤
مقدمات	مقومات	١٣	١٥٥
خائفة	خائفة	١٨	١٥٦
لا يعزب عنه	لا يعزب عنه	١٩	١٥٦
رغبة	رغية	١٨	١٥٨
١٩٧٧ هـ / ١٣	١٩٧٧ هـ / ١٣ ط	٢٥	١٦٠
والسدي	والستري	١	١٦١
حياة	حياته	١٨	١٦١
تفسير ابن كثير ج ١	ابن كثير ط	٢٤	١٦١
آباءكم	آباؤكم	٢٠	١٦٤
انتفتحت	انتفتحت	٤	١٦٥
ولم ينس	ولم ينسى	١٥	١٦٥
خسنة الدنيا تشمل	خسنة تشمل	٥	١٦٦